الإسلام دين الرحمة

عبد الرحمن أحمد شادى



الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الإهـــــــداء

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾[1].

أهدى هذا الكتاب إلى أبى الذى عاش ما بين سنتى ١٩٠٢ ـ ١٩٨١م ومات رحمه الله بالمنصورة وأعترف بفضله فقد كان عصاميا علم نفسه وورثت من كتبه زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن قيم الجوزية وطبقات ابن سعد والترغيب والترهيب للحافظ المنذرى وسبل السلام للصنعانى ورحلة ابن جبير وتحفة النظار لابن بطوطة وكليلة ودمنة تأليف بيدا الفيلسوف الهندى وتعريب عبد الله بن المقفع ومقدمة ابن خلدون وغيرها من كتب التراث... وكان السبب فى تعليمى جعل الله قبره من رياض الجنة...

اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله.

*****

(١) سورة الأحقاف آية ١٥، ١٦.

اعتـــــذار

«إنى رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا فى يومه إلا قال فى غده لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد كذا لكان يستحسن ولو قدم هذا لكان أفضل ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر ودليل على استيلاء النقص على جملة البشر»[1] فالكتاب مخلوق يتدرج فى مراحل النمو من الصغر إلى الكبر. . . وهو مفتوح البطن باستمرار تجرى فيه عمليات الترقيع بالإضافة والحذف والتسويد والتبييض. . . حتى بعد الطبع لا تخلو طبعة من زيادات، وتصحيحات ولصويبات من عمل المؤلف أو من غيره وقديما قيل من ألف فقد استهدف لا يسلم من ذلك أكابر المؤلفين ولا أصاغرهم ولا يختم على الكتاب إلا بعد وفاة المؤلف وانتقاله إلى رحمة الله تعالى فى دار كمال لا يشوبه نقص ونعيم ولا يمازجه شقاء [إن كان من الصالحين].

وتقتضى الأمانة تركه على بصمات صاحبه فلا تدخل عليه بصمة أخرى من غيره.

وليس معنى ذلك إغلاق الباب أمام الباحث والمراجع والمصحح والمحقق والناقد والشارح والمختصر فأمامهم الفرصة موجودة ولكنها تنتقل من صلب الكتاب إلى الهامش فى الشرح والحاشية والتقرير وإذا زاد الأمر عن حده انتقل الأمر إلى كتاب آخر فكثيرون من المؤلفين كتبوا الملاحق والصلات والتهذيبات والتكملات والذيول وربما تفوقت وزادت على الأصول والاستدراكات يذكرون فيها ما أغفله المؤلف أو ما أهمله.

حتى فى النقد منهم من يذمه ويغالى ومنهم من يمدحه ولا يبالى ومنهم المنصف الذى يتخذ طريقاً وسطا ومن أمثلة ذلك كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه للشريف الجرجانى وهذا كله دليل على نقص البشر وكل ما صدر عنهم وكمال القرآن وإعجازه وقديما قيل. . . أبى الله أن يتم غير كتابه. . . والتأليف

---

(١) العماد الأصفهانى فى مقدمة معجم الأدباء لياقوت طبعة أحمد فريد رفاعى.

تعليم بالقلم وفيه فوائد للمعلم والمتعلم والقارئ والسامع ويبقى ثوابه حسب النية الخالصة فلا ينقطع بموت صاحبه كما جاء فى الحديث الشريف «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»[1] رواه مسلم وفى حديث آخر «بئرا حفره أو نهرا أجراه أو مسجدا بناه أو مصحفا تركه أو بيتا لابن السبيل أو شجرة غرسها أو ولدا صالحا يدعو له أو علما نشره».

*****

(١) حديث ١٣٨٣ فى رياض الصالحين للنووى.

مقدمة

قد يعترض بعض القراء على النون فى فعل نستعين بعد البسملة وللرد على ذلك أقول: إن إخراج الكتاب لا يقوم به فرد واحد وإنما تتداوله الأيدى ابتداء من المؤلف ويليه الكاتب على الآلة ثم يأتى دور المصحح والمراجع والمحقق ومن عملهم تخريج المأثورات وإعادة المقتبسات إلى أصولها ثم يكون عمل الرسام والطباع والمجلد والناشر والموزع وكل هؤلاء جنود معلومون بأعمالهم [وغيرهم جنود مجهولون] فتشمل النون كل هولاء العمال فى إخراج الكتاب وتكون التسمية والاستعانة للقراء أيضا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم... وإذا عرف السبب بطل العجب واقتضى الأمر فى كتاب يختص بدين الرحمة...

الإسلام خاتم الأديان... فكان الكتاب كالعقد الفريد كل درة فيه تشتمل على شيء من الرحمة يلاحظها القارئ اللبيب... وكل لبيب بالاشارة يفهم... إلا ما خرج عن تطاق البحث واتصل بالحضارة الغربية والاستعمار الحديث فوجبت المقارنة ببعض الادعاءات فى ممارسة حقوق الإنسان أدت إلى ذكر المساوئ بجانب المحاسن فهى تبيع بذمتين وتزن بميزانين وتكيل بكيلين فلديها الطفل المدلل الذى يفعل كل ما بدا له ويلتمس له أهله المعاذير ويقدمون العلل ويصبرون عليه الصبر الطويل ويكونون له ظهراً يحميه فلاا يضربه أحد على بطنه، وأقرب الأمثلة إلينا اسرائيل والصرب.

وبجانب هذا لطفل المدلل..... اليتيم الذى يأخذ فوق رأسه وأقرب الأمثلة إلينا عرب فلسطين ومسلمى البوسنة الهرسك وسكان لبنان.. اقتضت هذه المقارنة ذكر بعض المقالات التى تزعزع الثقة فى الحضارة الغربية لعشاقها الذين يؤمنون بالتقليد الأعمى والذين يحبون ركوب الموجة العالية ويحبون ليلى أكثر من نفسها أو من قيسها المجنون بها وهذه المقالات تاريخ معلوم وحق شهده العام والخاص والجاهل والعالم.

مثل الخط الثابت، وعربات قطار الاستعمار - خدعوك فقالوا - الحضارة الغربية مثل يحتذى خدعوك فقالوا - الشرعية الدولية .

وكنيسة محروسة ولكى أكون عادلا ومنصفا أذكر حسنة من حسنات الغرب وهى سيئة عندنا: الصراع على السلطة تتمثل فى مقالة الخراب المستعجل[1]. ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾[2].

فالبغض أو الحب لا يحجب أحدهما أو كلاهما، العدل عند المسلم والقاضى على الحياد وكذلك الباحث النزيه الذى يدور مع الحق أينما دار ويعلنه ويجليه بعد أن تثبت فيسمع وجهات النظر المختلفة التى تأتى على الطبيعة دون إكراه أو استهواء ويناقش شهود الإثبات والنفى ويستعرض قرائن الأحوال ويستجلى الخفايا والأسرار ثم يصدر حكمه فى النهاية وهو على الحياد التام مؤيداً بالحيثيات مستندا إلى الأدلة والبراهين الكافية مستعينا بالله.

﴿ **قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون** ﴾[3].

الرحمن الرحيم

يقرأ المسلم هاتين الصفتين من صفات إلى الله فى سورة الفاتحة فى كل ركعة من ركعات الفرض وعددها سبعة عشر... وعددا آخر لا حصر له فى ركعات السنن المؤكدة والنوافل الراتبة المعتادة المقيدة ذات السبب فى اليوم والليلة والنوافل المطلقة وسورة الفاتحة أم الكتاب وهى السبع المثانى يبدأ بها القرآن الكريم وهى حمد وثناء وتمجيد لله وقصر لعبادة والاستعانة عليه يليهما طلب الهداية من الله وله نصفها الأول وللعبد نصفها الثانى والله سميع قريب مجيب لمن دعاه.

بل إن صفة الرحمن الرحيم تكون قبل الفاتحة فى التسمية وهى آية منها ومن كل سورة إخرى من المصحف تبدأ بها قراءة القرآن ومذاكرة العلم والأكل والشرب والعمل والذبح والصيد والوضوء والغسل وكل أمر ذى بال حتى الجماع ولم أجد مستثنى إلا خطبة الجمعة فتبدأ بالحمد وهذه أمور توقيفية... وقد ورد الحديث «كل أمر ذى بال لايبدأ فيه باسم الله فهو أجذم»[4].

---

(١) الهدى النبوى عدد ذى الحجة ١٤١٣ هـ أبريل ١٩٩٣م

(٢) سورة المائدة آية ٨.

(٣) سورة الأنبياء آية: ١١٢.

(٤) تفسير ابن كثير ـ البسملة.

وعند دخول المسجد يقول المسلم: اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك.

والرحمة جزء من تحية المسلم حين يلقى على أخيه السلام فيقول: السلام عليكم ورحمة الله وكثيرا ما يفعل ذلك فى كل لقاء بأخيه فيرد عليه بالمثل مع زيادة الواو فى أول كلمة..

وفى الجلسة بين السجدتين.. يقول: اللهم اغفر لى وارحمنى وعافنى وارزقنى.

وتنتهى كل صلاة بعد التشهد بالسلام والرحمة عن اليمين والشمال، وفى المادة الواحدة ـ الرحمة ـ اشتق أسمان من أسماء الله تعالى الرحمن لجميع الخلق فى الدنيا والآخرة وفى القرآن سورة: ﴿الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الإِنسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[1]. ذكر الله فى هذه السورة المدنية بعض النعم التى خلقها للإنسان فى الدنيا برحمته وأولها تعليم القرآن وتيسير ذكره وحفظه وتلاوته وترتيله وتفسيره ويعد عد هذه النعم وجب على الإنسان أن يشكر ربه وأن يحمده على آلائه.

ورحمة الله تسبق غضبه: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾[2].

فالرحمة فى الدنيا جزء واحد من مائة جزء تتراحم منه جميع الخلائق ومنه رحمة الأم بأولادها من الإنسان والحيوان والسباع والطير فهى ترضع ولدها باللبن الذى خلقه الله من بين فرث ودم عند نزول الولد من بطنها فيأتيه رزقه من اللبن فى التو والساعة والطير تستعيض عن هذه العملية بما تضعه من الطعام فى مناقير صغارها أو فراخها وتمسح الأم وليدها بلسانها إن لم تعرف مسحه بيديها لأنها من ذوات الأربع وتدافع عنه كل من يحاول العدوان عليه حتى الموت وتستمر فى هذه العناية والرعاية والرحمة حتى يعتمد على نفسه ويستقل بحياته وتنشغل بأولاد جدد صغار يخلى لهم الكبار الطريق إلى الحياة.

---

(١) سورة الرحمن آيات: ١ـ٤.

(٢) سورة الأنعام آية: ١٢.

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

والرحيم من صفات الله الخاصة بالمؤمنين لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾[2]. فى الدارين.

والرحمة فى الآخرة فهى بقية التسعة والتسعين جزءا من المائة وأهوال الآخرة شيء عظيم يكفى فيها الزلزلة التى تجهض الحامل وتذهل المرضع عن رضيعها وترى الناس،فيها سكارى وما هم بسكارى.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[3].

وقد جرب الناس فى الدنيا ـ الزلزلة لمدة ثوان، والدقيقة ستون ثانية، والساعة ستون دقيقة فأحدثت رغم قصر المدة وعلمهم أنها ليست زلزلة الساعة من الذعر والهلع والخوف ما يذكر الناس بيوم القيامة وعلامات الساعة وأبواب الرحمة مفتوحة باستمرار لا تغلق.

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[4].

ولكنها لا تعطى لكل من هب ودب وإنما تعطى لمن يستحقها كما تذكر الآية التالية: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[5].

ويحمل المطلق على المقيد كما هو معلوم وخصوصاً إذ كانا فى رتبة واحدة فكلاهما آيتان من كتاب الله والسنة مبينة لمجمل القرآن ففيه الأمر بإقامة الصلاة

---

(١) سورة فاطر آية: ٢.
(٢) سورة الأحزاب آية: ٤٣.
(٣) سورة الحج آية: ١، ٢.
(٤) سورة الزمر آية: ٥٣.
(٥) سورة الأعراف آية: ١٥٦.

وإيتاء الزكاة ولكن كثيراً من التفصيلات فى العبادات والمعاملات مردها إلى السنة.

الرحمة تشمل العصاة والمذنبين بعد التوبة النصوح: ﴿**وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وأنت خَيْرُ الرَّاحِمِينَ**﴾ (١).

ويكفى أن يشغل حملة العرش أنفسهم بالاستغفار للتائبين الذين أغلقوا الصفحة السوداء وفتحوا الصفحة البيضاء مع الله وكتبوا تاريخهم الجديد بأعمالهم ﴿ **رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾(٢).

ومن رحمته إلحاق الناقص فى العمل بالكامل إذا كانت سعادته لاتتم إلا بوجوده معه لاتغلق أبواب التوبة بالنسبة لأى إنسان إلا عند الاحتضار.

أما بالنسبة للعالم كله فعند طلوع الشمس من مغربها كما وردت بذلك الأحاديث.

عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال: « **إن الله عز وجل يقبل توبة العبد مالم يغرغر**»(٣).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه**»(٤).

ومن رحمة الله بالإنسان اختصاصه بالنعم وتسخيرها له مثل الهواء والماء والنار والليل والنهار والسمع والبصر والفؤاد والحس والحركة إلخ. وقد خصصت لها كتابا مستقلا. نشرته مكتبة الإيمان بالمنصورة.

وتوزن الأعمال الصالحة بجانب النعم فترجح كفة النعم ويكون دخول الجنة برحمة الله والدرجات فيها بفضله فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول

---

(١) سورة المؤمنون آية: ١١٨

(٢) سورة غافر آية ٧، ٨، ٩

(٣) حديث ١٨ فى رياض الصالحين للنووى

(٤) حديث ١٧ فى رياض الصالحين للنووى

الله ﷺ. **«قاربوا وسددوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل»**[1].

وإرسال الرسل وإنزال الكتب وتقديم النصائح وذكر الإنذارات وقصص الأمم السابقة رحمة من الله لعباده ليعتبروا بما مضى ويبتعدوا عن المعاصى والآثام وبذلك تكتب لهم النجاة ويكون مصيرهم الفوز والفلاح.

وقد اتصف رسل الله بالرحمة وخصوصاً إبراهيم أبو الأنبياء وخليل الرحمن حين قال: **﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾**[2]. وعيسى حين قال: **﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾**[3].

وحفيد إبراهيم... **محمد خاتم الأنبياء ﷺ فقد قال الله فى صفته وصفة** رسالته: **﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾**[4]. وقد وردت فى حقه آيات أخرى تحمل المعنى.

*****

(١) حديث ٨٦ فى رياض الصالحين للنووى.

(٢) سورة إبراهيم آية: ٣٦

(٣) سورة المائدة آية. ١١٨.

(٤) سورة الأنبياء آية ١٠٧

جبر الخواطر على الله

كانت امرأة سوداء تخدم بيت الله فتكنسه وتنظفه وتصلى فيه طبعا فماتت دون أن يحس بها أحد فافتقدها رسول الله فأخبروه بموتها وهونوا من شأنها فطلب منهم أن يدلوه على قبرها فصلى عليه استدراكا لما فات من الصلاة عليها قبل الدفن ورجاء للنور والرحمة بعد الظلام والوحشة[1].

وكان رسول الله ﷺ يخفف الصلاة [وهو إمام طبعا] رفقا بالأم التى يبكى ابنها إلى جوارها فينشغل قلبها ببكائه ويخف انتباهها ويقل خشوعها فى صلاتها[2]، وأوصى الإمام أن يخفف فى صلاته « إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والسقيم وذا الحاجة وإذا صلى أحدكم فليطول لنفسه ما شاء»[3].

وقد اتخذت زينب حبلا بين ساريتين يشدها إذا فترت تعلقت به فقال: «**حلوه ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليرقد**»[4].

ومن فضل الله ورحمته أن النوم إذا غلب المصلى على عادته من الصلاة كتبها الله له صلاة وكان نومه صدقة عليه، وهناك حديث آخر فى صلاة المرأة: « **لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وليخرجن تفلات**»[5].

كان نساء المؤمنات يشهدن مع رسول الله صلاة الفجر متلفعات بمروطهن ثم ينقلبن إلى بيوتهن حين يقضين الصلاة لا يعرفهن أحد من الفلس حديث ٣٧٧ فى اللؤلؤ والمرجان وفقه السنة ١/ ٨٩ وسلام الرسول على النساء القعود فى المسجد حديث ٨٥٥ رياض الصالحين.

---

(١) حديث ٢٥٦ رياض الصالحين للنووى.

(٢) حديث ٢٣١ سابق متفق عليه ٢٧١ فى اللؤلؤ والمرجان.

(٣) حديث ٢٢٨ رياض الصالحين للنووى

(٤) حديث ١٤٦ سابق متفق عليه ٢٧١ فى اللؤلؤ والمرجان.

(٥) الدعوة الإسلامية ص٦٦ محمد الغزالى وهو حديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - محمد فؤاد عبد الباقى رقم ٢٥٤

ومن استعراض أحاديث الإثبات والنفى يظهر القاسم المشترك الذى يكون عليه المعول فى العمل وهى رتبة فى الاجتهاد لمن كان أهلا له وليس لكل من هب ودب.

وكان رسول الله يرعى ظروف المريض فى الصلاة مثلا يصلى قاعدا من عجز عن القيام ويصلى مضطجعاً من عجز عن القعود ويصلى إيماء برأسه من عجز عن الاضطجاع، وفى الصيام له أن يفطر، وفى الجهاد تحسب له النية ويكتب له الثواب مع المجاهدين خطوة بخطوة: **« إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيراً ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم المرض»**[1].

ومن كلَّف نفسه [فى النذر] فوق طاقتها رد الزائد عن الحد ولم يلزم إلا ما كان فى وسعه كالرجل الذى جمع فى النذر على نفسه بين الصيام والقيام فى الشمس فلا يقعد ولا يستظل والصمت فلا يتكلم فاعتبر رسول ﷺ هذا عذابا للنفس دون مبرر وتكليفا بما فوق الطاقة والله غنى عن هذا العذاب وأمره أن يقعد ويستظل ويتكلم ويكفيه من النذر ما يطيقه وهو الصيام فالله رحيم بخلقه[2].

ورواية الحديث بالمعنى جائزة كما هو معروف.

وجعل التعادل بين الحقوق غرضا يسعى إليه المسلم ليستطيع التوفيق بين دينه ودنياه وأولاه وأخراه وهذا سهل ميسور.

« إن لربك عليك حقا وإن لنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا فأعط كل ذى حق حقه»[3].

وجعل القاعدة فى التعامل بين الناس هى القياس على النفس: **« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**[4]. وما لا يرضاه لنفسه لايرضاه لغيره حتى لو كان أقل منه خادما أو تابعا أو رقيقا أو أسيرا أو مرءوسا.

«إخوانكم خولكم من كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من الأعمال مالا يطيقون فإذا كلفتموهم فأعينوهم»[5].

وهذا ميزان حساس للإيمان مثل ميزان الذهب والفضة والمعادن الثمينة فالأنانية

(١) حديث ٤ سابق.
(٢) حديث ٦٥٢ سابق.
(٣) حديث ١٤٩ سابق.
(٤) حديث ٢٣٦ سابق.
(٥) حديث ١٣٦٠ سابق.

طاغية على الناس فيهم من لا يبالى بأحد إذا تحققت مصلحته فالصراع والتنافس، على الدنيا شديد ﴿ كَلاَّ بل لاَّ تُكْرِمُون الْيَتِيم . وَلا تَحَاضُّون عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِين .وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا . وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾(١).

وكان رسول الله يدع العمل [وهو يحبه] خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم(٢).

ولما شكا الفقراء تفوق الأغنياء عليهم [فى أعمال الخير] فهم يتساوون معهم فى الصلاة والصيام ويزيدون عليهم بالصدقة والعتق نصحهم بختام الصلاة تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين حتى يدركوا منزلتهم عند الله فلما سمع الأغنياء ذلك فعلوا مثلهم فبقى السبق قائما فأعادوا الشكوى قال ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء(٣).

وأمر بقول المعروف والكلمة الطيبة وأداء الأمامة وإكرام الضيف ومن ذلك أن يفطر المضيف إن كان صائما فى التطوع من أجله وإن كان الضيف هو الصائم فليخبرهم حتى لا يتكلفوا، والوفاء بالوعد والعهد وحماية الحليف والإحسان إلى الجار وكفالة اليتيم والمسح على رأسه ومشاركته الطعام والشفاعة الحسنة وعيادة المريض واتباع الجنازة وتشميت العاطس وإبرار المقسم ونصر المظلوم وإجابة الداعى وإفشاء السلام.

ولو كان على الصبيان(٤). إلقاؤه سنة والرد فرض والمصافحة عند اللقاء والابتسام فى وجه الأخ «لاتحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق»(٥). ومراعاة شعور المنفرد فلا يتناجى اثنان دونه لأن ذلك يحزنه(٦).

وتحرير الرقيق والأسير والدلالة على الخير: «من دل على خير فله أجر مثل فاعله»(٧). ومساعدة العاجز أو الضعيف فى حمل الحقائب، ورفع الأثقال والتوسع فى المجالس والأخذ بيد الأعمى وقبول هدية المسكين وجبر خاطره. . .

وجبر الخواطر كلها على الله: «لو دعيت إلى كراع أو ذراع لأجبت ولو

(١) سورة الفجر آيات: ١٧ـ ٢٠.
(٢) حديث ٢٢٩ سابق. (٣) حديث ٥٧٨ سابق. (٤) حديث ٦٠٤ سابق.
(٥) حديث ١٢١ سابق. (٦) حديث ١٥٩٩ سابق. (٧) حديث ١٧٣ سابق.

أهدى إلى ذراع أو كراع لقبلت»[1]. وفى حديث آخر: « لاتحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة»[2]. (حافر الشاة)

والعفو عن المسيء وأشهر ما حدث من ذلك عفو الرسول عن أهل مكه حين استشاره ملك الجبال عند عودته من الطائف فى إطباق الجبلين عليهم وهلاكهم بالجملة تحت الأنقاض.

وسيأتى هذا الحديث فى مقالى بعد نظر إن شاء الله، ولما فتحت مكة سنة ٨هـ قال لأهلها: «ما تظنون أنى فاعل بكم» قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وقد انتهز رجل فرصة نوم الرسول فى القيلولة وتعليق سيفه فوق شجرة فأخذه وأراد قتله وقال: من يمنعك منى «قال الله» فسقط السيف وعلت كلمة الله ولكن رسوله آثر العفو فهو أهله ولم يكره الرجل على الإسلام واكتفى منه أن يكون على الحياد فلا يقاتله ولا يكون مع قوم يقاتلونه[3].

ومن ذلك الأعرابى الذى بال فى المسجد فهم الصحابة أن يقعوا به ولكنه كفهم عنه وقال «لاتقطعوا عليه بولته وأريقوا على بوله سجلا أو ذنوبا من ماء فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[4].

وقد اتهم عيينة بن حصن عمر بن الخطاب الحاكم الراشد العادل بالظلم فهمَّ بمعاقبته ولكن جلساءه ذكروه بآية العفو والإعراض عن الجاهلين[5]، فسكن غضبه وكظم غيظه وعفا عنه، وإذا كانت الرحمة هى الفطرة التى فطر عليها المؤمن الرقيق القلب فإن منها للرفق بالحيوان فإنه يتألم من الجوع والعطش والحبس والعذاب والتعب كما حدث للكلب العطشان الذى سقاه رجل كان فى نفس التجربة ولم يجد ما يسقيه به إلا خفه ملأه من البئر وأمسكه بفيه فيداه مشغولتان بصعود البئر فغفر الله له[6].

وللجمل الجائع التعبان وجده رسول الله فى حائط نخل فشكا إليه الجوع والتعب... جرجر وذرفت عيناه فاستدعى صاحبه فقال له: ألا تتقى الله فى هذه

---

(١) حديث ٦١٠ سابق.
(٢) حديث ١٢٤ سابق.
(٣) حديث ٧٨ فى رياض الصالحين للنووى.
(٤) حديث ٦٣٦ سابق.
(٥) حديث ٥ فى رياض الصالحين للنووى.
(٦) حديث ١٢٦ سابق.

البهيمة التى ملكك الله اياها إنه يشكو إلى أنك تجيعه وتدئبه[1]

والقطة المحبوسة حتى ماتت من شدة الجوع دخلت فيها النار لا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض[2] والحمار الموسوم لعن رسول الله من كواه فى وجهه[3]. والدجاجة المستهدفة لعن رسول الله من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا[4]. ونهى أن تحمل الحيوانات من الأثقال فوق طاقتها وأمر بالرفق فى السير فتتأنى فى الخصب لترعى وهى سائرة وتسرع فى الجدب لتصل إلى الغاية فى مدى قصير... وسرعة حط الرجال عند النزول فى محطات الراحة.

ونهى عن التحريش بين البهائم... مصارعة التيران ومناطحة الكباش ومناقرة الديوك. وملاكمة ومصارعة الإنسان من هذا القبيل.

ونهى عن التفرقة بين الأم وأولادها فى البيع والشراء أو فى الأسر

والرحمة فى النهاية لا تنافى العقاب على الجرائم والقصاص فإنه رحمة بالمجتمع: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[5].

القيوم

يرى السائح المشاهد لأحوال الخلق العواصم الكبرى والمدن العظيمة مكتظة بالسكان لا موضع فيها لقدم وقد فاق الزحام تصور أهل القرون الأولى حتى لو قام واحد منهم كأهل الكهف ورأى أحفاده على هذه الصورة لولى منهم فراراً ولملأ منهم رعبا السيارات الحافلات الكبيرة والمتوسطة والصغيرة العامة لأى راكب أو لطوائف متجانسة فى الشركات والمصالح والمؤسسات والمرافق والجيش والشرطة والخاصة التى يستعملها أصحابها والقطارات المكهربة فوق الأرض وتحت الأرض فى الأنفاق..

والدراجات البخارية والمعتادة وغيرها من وسائل النقل، والمشاة على أقدامهم فى الميادين وعلى أرصفة الطرق كالجراد المنتشر وأسراب النمل ينزلون من السيارات ويصعدون من الأنفاق كل هؤلاء يذهبون إلى أعمالهم التى يأكلون منها العيش فى الصباح ويعودون فى المساء فيهم المتوكل على الله فهو يرزقه كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا وفيهم المتوكل على نفسه المفاخر بمهارته وذكائه وحسن تصرفه

(1) حديث ٩٦٧ سابق
(2) حديث ٦ سابق
(3) حديث ٧ ١٦ سابق
(4) حديث ١ ١٦

ويظن أن الدنيا قد دانت له حين يبتسم الحظ ويأتيه الأمل بما يحتسب والله يرزقه أيضا فالرزق عام للطائع والعاصى والكافر والجاحد والشاكر ﴿**وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين**﴾[1].

يرى السائح المشاهد دقة القيوم الذى جعل لكل فرد فلكا يسبح فيه ودائرة يضطرب داخلها بحيث يخدم نفسه ويحفظ حياة الجموع فيؤدى غايتين بعمل واحد ويضرب عصفورين بحجر واحد وتتجلى فى ذلك صفة الرحمة عند الرحمن الرحيم.

الناس للناس من بدو وحاضرة   بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

دون أن يكون هناك تعارض أو تناقض أو صدام إلا فى القليل النادر.

الحركة تنساب فى الشوراع مئات السيارات والعجلات والمشاة يمرون فى لحظة واحدة وإن اعترتها بعض العوائق والعراقيل فسرعان ما تزول هذه العراقيل ولابد من الثناء على الكبارى العلوية والأنفاق السفلية فى الميادين الهامة فلا تقطع السيارات عليهم طريقهم ولا يقطعون عليها طريقها تفاديا للحوادث والمصائب والضحايا من القتلى والجرحى، يرى السائح المشاهد نزول الأمطار وتكوين الأنهار وتعاقب الليل والنهار وتفتح الأوراق والورود ونمو النباتات وثقل العيدان بالسنابل والكيزان وتقسيم الأرزاق وأداء الأعمال واتفاق الأزواج لأن هناك الحافظ الأعظم لنظام الحياة على ظهر الأرض الذى يجعل كل هؤلاء الملايين من الخلق يضطربون على سطحها ويتجهون لغاية معلومة عامة للدنيا وخاصة لكل واحد منهم فى انسجام تام وتناغم شامل.

وهذه هى القاعدة ولكل قاعدة شواذ.

ويوم يريد الخالق القضاء على هذا النظام وإنهاء الحياة الدنيا على سطح الأرض فإن أى رجفة أو صيحة أو زلزلة أو بركان أو طوفان أو عاصفة أو نار متأججة أو برد قارس يقوم بالمهمة فى لحظات معدودات.

---

(١) سورة هود آية: ٦.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا. فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا. لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾[2].

وهذه أمثلة لعقول بشرية تؤدى دورها المحدود يتكون المخ من خلايا لحمية وسره العجيب فى تدبير حاجات الجسد والإشراف على أجهزة السمع والبصر والكلام والحركة والهضم والإخراج. والتناسل والدورة الدموية والذاكرة أما الضمير فهو الموفق بين مطالب الروح وحاجات الجسد، ويوفق شرطى المرور بين السيارات التى تهل من اتجاهات مختلفة فيمنعها أن تتصادم أو تهرس المشاة.

ويرسم رئيس الدولة بعقله ويستعين بمستشاريه ونواب الأمة وأعضاء مجلس الشورى على وضع السياسة العامة التى تسير عليها الدولة ويمسك بيديه وأيدى نوابه ومساعديه ومعاونيه ووزرائه خطوط الاتصالات فى أجهزة الدولة التنفيذية.

ويشرف ناظر المدرسة على تعليم مئات التلاميذ كل يوم وفق برنامج محدد رسمته لجنة المناهج فى كل مادة ويؤديه المدرسون المختصون بها فى كل فصل دراسى.

ويجعل مدير المصلحة أو الشركة أو المؤسسة لكل موظف عملا معلوما يؤديه فى وقت مخصوص ومكان معين ويسأل عنه حتى لا يصبح الأمر فوضى.

ويجتهد مهندسى التنظيم فى تنفيذ خريطة التخطيط وتحديد الشوارع والميادين ورسم البيوت داخل مساحات معلومة حتى لاتطغى البيوت على الشوراع ولا يطمع صاحب بيت فى جاره.

هذه نماذج لعقول بشرية تتعرض للغفلة والنسيان والتعب والراحة والصحة والمرض والنوم كل يوم وربما أصابتها الصدمات العصبية فعجزت تماماً عن تدبير

(١) سورة يونس آية: ٢٤.

(٢) سورة طه آية: ١٠٥ ـ ١٠٧.

أمورها وتيسير دفة التابعين لها ودورها محدود جدًا ينتهى فى سنوات ثم تستخلف الأجيال الجديدة التى تحل محلها. . .

وهذا ما حال فى العقل دون الاعتقاد بألوهية المسيح عيسى ابن مريم عند النصارى والعزير عند اليهود وأى أله بشرى فى أى ديانة أخرى وحتى العقل الآلى الذى يتحدثون عنه فإنه يتعرض للفساد ويحتاج إلى الإصلاح من صانعة الإنسان ولكن القيوم خالق السموات والأرض ومن عليها من الملائكة والجن والإنس والحيوان والطير والحشرات الزواحف والهوام والأسماك فى البحار. يحفظ كل هذه العوالم والأمم فى ألوف السنين: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُوم. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾[1]. هل يصدق أحد أن الصدفة العمياء هى التى أوجدت كل هذه العوالم وهل نستطيع المحافظة على أفرادها عشرات السنين وأنواعها ألوف السنين. . هل من الممكن أن تقوم الصدفة العمياء مقام العقول البشرية التى سبق ذكرها. المخ فى كل إنسان ورجل البيت وناظر المدرسة وشرطى المرور ومدير المصلحة ومهندس التنظيم وقائد الجيش ومحافظ الأقليم ووزير الوزارة ورئيس الدولة.

بُعد نظر

لم تكن الهجرة إلى المدينة المنورة هى المحاولة الأولى للخروج من الجو الكئيب والحصار الرهيب الذى تحيط به قريش الرسالة والرسول والدعوة والداعية فى مكة فهى لا ترحم ولا تترك رحمة الله تنزل على رسوله ومن معه واتبعه من المؤمنين.

هناك محاولات سابقة ـ الهجرة إلى الحبشة مرتان ثم ذهاب رسول الله إلى الطائف على أمل أن يجدها خيرا من مكة وإلى ثقيف عسى أن تكون خيرا من قريش، على الإنسان [حتى لو كان رسولا] أن يسعى وليس عليه إدراك النجاح وعليه أن يحاول مرارا وتكرارا دون يأس: ﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ

(١) سورة الواقعة الآيات: ٧٥، ٧٦

﴿الْكَافِرُونَ﴾(١). وليتهم رفضوا الدعوة بأسلوب مهذب بل إنهم عاملوه معاملة سيئة . وقابلوه بالسفاهة والسفالة وقلة الأدب.

وفى عودته من الطائف قال دعاءه المشهور: « اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى تبارك الذى أشرقت لنور وجهه الظلمات وصلح عليه حال الدنيا والآخرة أن يحل بى سخطك أو ينزل على عقابك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم» فعرض عليه ملك الجبال أن يطبق على أهل مكة الأخشبين ـ الجبلين المشرفين على مكة أبى قيس وقعيقعان وهى حادثة مشهورة فى كتب الحديث والسيرة الكبيرة والصغيرة والقديمة والحديثة فكان رسول الله بعيد النظر حين رفض هذا الهلاك بالجملة تحت أنقاض الجبلين لأهل مكة حرصا على مستقبل الرسالة وإن تحمل الآلام وعانى المشقات ووجد المتاعب مع الجيل الحاضر الذى يحرص على حياته لا من أجل ذاته بل من أجل ذريته وأملا فى مستقبل أفضل.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢).

وظهرت رباطة جأشه وبدا ثبات فؤاده وإنه لم يفقد أعصابه حتى فى أشد المواقف هولا حين علل الرفض بقوله: «أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده ولا يشرك به شيئاً»(٣). وهو حديث شريف صحيح مشهور متفق عليه بين البخارى ومسلم بلغ أعلا درجات الصحة.

إن كان الجيل الحاضر قد انطمست بصيرته واستحب العمى على الهدى فإن الأجيال القادمة الخلفاء على الأرض الأبناء والاحفاد قد لا تكون على مشاكلة الآباء والاجداد. . ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾(٤).

---

(١) سورة يوسف آية: ٨٧. (٢) سورة التوبة آية: ١٢٨.

(٣) صحيح مسلم ٥/ ١٨١ باب الجهاد والبخارى ٤/ ١٣٩ كتاب بدء الخلق وحديث، ٦٤ فى رياض الصالحين للنووى باب العفو والاعراض عن الجاهلين.

(٤) سورة محمد آية: ٣٨ . .

وبذلك تنقلب الموازين ويطلع الفجر بعد الظلام الدامس وتشرق الشمس بعد الليل الطويل ويأتى الدفء بعد البرد القارس. . .

وقد تحقق الرجاء وأصبح الأمل والحلم واقعا ملموسا وشيئا محسوسا وجاءت تباشير النصر ورأى رسول الله فى حياته الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ومنهم أهل مكة الذين استشاره الملك فى إطباق الجبلين عليهم. ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾[1].

وبذلك خرج المؤمن من الكافر والحى من الميت والصالح من الطالح والنور من الظلام فمن بدائع الخلق ومعجزات التكوين أن تخرج النقائض من بعضها وأن يحتوى الضد على جنين الضد، وهذا معنى لطيف لم أقصد إلى الكلام فيه وإنما جاء عرضا فى ثنايا المقال وسياق الحديث، والحديث ذو شجون وتحقق بعد نظر الرسول ورباطة جأشه وحرصه على مستقبل الدعوة قبل حاضرها فأى تصرف يجنى على مستقبل للدعوة ويضربه فى الصميم ضربة قاصمة لا يرغب فيه ولا يرضى عنه حين يستشار فيه ويجعل أحد البدائل المتاحة الموجودة فى الساحة وهذا حديث آخر يظهر فيه الحرص على نجاة الناس من المصير السيىء الذى ينتظر الكفار والعصاة فى النار إذا أتاهم الأجل وهم على الكفر والعصيان عن جابر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «مثلى كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم من النار وأنتم تفلتون من بين يدى»[2].

*****

(١) سورة النصر كلها.
(٢) حديث ١٦٣ فى رياض الصالحين للنووى.

أهل اليقين

تبدأ أهداف الإنسان صغيرة تناسب طفولته فتكون على مقدار حاجته محصورة فى الطعام والشراب والدفء والأمن والحنان وحب من يقضى له هذه الحاجات: الأم والأب والأخوة وكل من يعطف عليه من الأقارب والجيران... ثم ينفسح أمامه باب الأمل العريض والثقة المطلقة فى الكبار الذين يقلدهم الطفل الصغير ويظنهم عظماء فإذا مرت عليهم الأيام والليالى والشهور والأعوام انكشفت عجائب المخلوفات وغرائب الموجودات وتعرى الأبطال عن ثياب البطولة وسقطت عن العظماء أقنعة العظمة وانكشف الغطاء أمام العيون المبهورة المسحورة وبطل السحر والسحرة وظهر كل شىء على حقيقته كما يفعل واضع النظارة المعظمة على عينيه حين يخلعها.

يفتح الإنسان عينيه بعد أن يشب على الطعام الشهى والشراب اللذيذ والثياب الغالية والمسكن الفسيح المريح والأثاث الغالى والمال الكثير والمرأة الجميلة والزوجة الوفية والولد العزيز والشهرة الواسعة ويحاول بكل سبيل تحقيق مرامه ونيل أحلامه وإشباع غاياته والفوز بأهدافه فيحقق بعض أهدافه

ما كل يتمنى المرء يدركه   تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن

وأمام كل ناجح ترمقه العيون بإجلال وإكبار واحترام ألف فاشل انطوت أحلامهم فى صمت مطبق وألف يائس يتعثر وينهض من جديد ويحاول النجاح عشرات المحاولات ولم ينته بعد إلى الفشل التام واليأس المطلق..

وألف حاصل على شىء وقد فقد بجانبه أشياء أهم مما حصل عليه كأن يكثر لديه المال ويفقد الصحة فى نفسه أو فى أحد أفراد أسرته... أو يصاب بخيبة العيال بسبب كثرة المال.

وهل وجد فى الدنيا المسعود الأول الذى ساعدته المقادير وحقق له الحظ أهدافه بحذافيرها فتحققت كل آماله فكان فى السماء عزيز المنال ثم لا تتم فرحته ولا يهنأ بنجاحه ولا يسعد بنصره لا يلبث إلا يسيرا حتى يأتيه المحاق بعد أن كان بدرا فينزل إلى الحضيض كما بدأ بعد السمو الرفعة «حق على الله ألا يرتفع شىء من الدنيا إلا وضعه»[1].

(١) حديث ٦١١ فى رياض الصالحين للنووى.

والغريب أن الجسم يقوى ويشتد ما دام الأمل ساريا فى روحه فإذا تحقق الفشل وتزلزل الهدف سرت العدوى إلى بدنه وأصبح يجر رجليه جرا وربما زاد عليه المرض الجسدى والألم النفسى فأصبح لا يستطيع الحركة ولو فى مكانه، وبعد التجارب المريره يجد أن الغايات التى سعى فى سبيلها قد اضطربت فى مهب الريح ولم يحصل إلا على خيوط العنكبوت فى صندوق الدنيا ولم ير إلا سرابا ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(١).

قل المال وشاه الجمال وشاخ الشباب وبليت الثيساب ومرضت الأجسام واتخذته الزوجة معبرا إلى الأولاد واتخذه الأولاد قنطرة إلى الأحفاد ولم يكن حب الولد كفوا لحب الأبوين: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾(٢).

قلبى على ولدى انفطر وقلب ولدى على حجر وتغير الإخوان لأتفه سبب وأهون علة، فظهرت أحقاد النفوس وأضغان القلوب بعد أن كانت مستورة بورقة التوت وثوب الرياء وغصن الزيتون ودهان الغسل.

ثوب الرياء يشف عما تحته　　　فإذا التحفت به فإنك عار

وتغير الصاحب فى غمرة الأحداث وزحمة الدنيا وعنف الصراع وقد ينقلب على عقبيه فيتحول إلى عدو مبين بعد أن كان صديقا حميما.

وأتى المركز العظيم بوسائل غير شريفة أو احتاجت المحافظة عليه إلى ما يأباه الحر الكريم لنفسه من التملق والنفاق وبذل الأموال فى غير محلها وأخذ التجار عرق جبينه وكد يمينه وومضات فكره وبنات اختراعه لقمة سائغة وغنيمة باردة فأصبحوا من أصحاب الملايين على حسابه وحساب أمثاله وفقدت بقية الأشياء بهجتها وسحرها... كواكب بهية وأقمار منيرة وشموس مضيئة وهاجة ومخلوقات بديعة التكوين رائعة الجمال اتخذها الناس غايات وأهدافا ساروا إليها وحاولوا الوصول إلى شىء من سرها وسحرها فوجدوها غير دائمة ولا ثابتة ولا

(١) سورة النور آية ٣٩.　　(٢) سورة التغابن آية: ١٤.

باقية فالدائم والخالد والثابت والباقى هو الله حى لايموت شاكر لا يجحد ذاكر لا ينسى دائم لا يتغير عالم بالظواهر والسرائر والخبايا والأسرار رحيم بخلقه يقدر الظروف الضعف فى الصغر والهرم فى الكبر والمرض فى جميع مراحل العمر والخطأ والنسيان والجهل والإكراه غافر الذنب وقابل التوب رازق كل دابة على ظهر الأرض هى لا تحمل رزقها ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(١). منه الطلب وإليه المنقلب مجيب دعوة المضطر قادر على الحياة والموت والبعث وتسوية البنان ونثر الكواكب وزلزلة الأرض ونسف الجبال وشق السماء خالق الأسباب والمسببات ولو شاء ألغاها بالمعجزات فتجارب الانسان مع الوسائل والغايات شبيهة بتجربة إبراهيم أبى الأنبياء وخليل الرحمن حين أراه الله ملكوت السموات والأرض وليكون من أهل اليقين ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُون. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(٢).

*****

---

(١) سورة العنكبوت آية: ٦٠.

(٢) سورة الأنعام آيات: ٧٥ـ ٧٩.

نور الظلام

ينسّب عمر بن عبد العزيز نور الظلام ونفس الزمان ونجيب بنى مروان وخامس الراشدين إلى آل الخطاب من جهة أمه وتبدأ القصة بالتساوى والتواضع وتقدير الأخلاق قبل الأحساب والأنساب والأموال والمناصب والجمال فقد سمع عمر بن الخطاب وهو يتفقد أحوال الرعية بنفسه امرأة تستبيح غش اللبن بالماء مادامت تأمن اطلاع الناس على غشها فتأمر ابنتها بذلك وترفض البنت لأنها أوتيت الضمير الحى والنفس اللوامة[1] فتعصى أمها وعلى المرء السمع والطاعة فيما أحب وكُره إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة[2].

وقد سُمعت المنادى فى المدينة يذيع أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ألا يشاب اللبن بالماء فردت عليها أمها بأن أمير المؤمنين لا يرانا فقالت البنت: الله يسمع ويرى ما كان لك أن تطيعى أمر أمير المؤمنين فى العلانية وتعصيه فى السر.

إمرأة من عامة الناس رفعها خلقها ودينها لمصاهرة أمير المؤمنين لو كان شابا من ذوى الإربة فى النساء ولكن السن علا به عن ذلك فاختار أقرب الناس إليه ولده عاصم لأنه الأعزب الوحيد وقد ظفر بذات الدين بناء على مشورة أبيه فكانت من نصيبه كما جاء فى الحديث: **«تنكح المرأة لأربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك»**[3].

فبارك الله له وبارك عليه وجمع بينه وبين فتاة من بنى هلال فى خير... ثم وضعت بنتا سميت ليلى وكنيت أم عاصم تزوجها فيما بعد عبد العزيز بن مروان فأنجبت له عمر نور الظلام ونفس الزمان ونجيب بنى مروان وخامس الراشدين... ولد فى حلوان سنة ٦١هـ فهو مصرى الميلاد فى بلد اختطها أبوه حين كان واليا على مصر لأبيه مروان ولأخيه عبد الملك هربا من طاعون الجارف وأنشأ مقياسا للنيل عندها وزرع فيها الكروم والبساتين والنخيل على شاطئ النيل بينها وبين الفسطاط فرسخان وضرب فيها الدنانير...

ثم تربى عمر فى المدينة المنورة فى كنف أخواله من آل الخطاب تحت رعاية

---

(١) راجع قصتى النفس اللوامة الهدى النبوى عدد؟ الربيعان ١٤١١هـ

(٢) حديث ١٦٤ فى رياض الصالحين للنووى.

(٣) حديث ٣٦٤ فى رياض الصالحين للنووى.

المؤدب صالح بن كيسان كان يلزمه بأداء الصلوات جماعة فى المسجد فتأخر مرة فلما سئل عن السبب قال كانت مرجلتى تسكن شعرى فكتب المؤدب إلى أبيه فى ذلك فلم يكلمه الرسول حتى حلق شعره لأنه آثر تسريحه وتزيينه على صلاة الجماعة وكان عنده الوقت الكافى لذلك قبل الصلاة.

وقد وظف له عمه عبد الملك ألف دينار مرتبا شهريا للنفقة... أخذه بالشدة ليبعده عن دلال الأمراء وترف الأغنياء... حفظ القرآن ودرس الحديث الشريف وقوم لسانه بشعر العرب وتفرغ لطلب العلم بالمدينة المنورة ولما بلغ العشرين من عمره زوجه عمه عبد الملك بن مروان ابنته فاطمة فقال الزوج الفتى لصهره وعمه وصهره **«وصلك الله يا أمير المؤمنين لقد أجزلت العطية وكفيت المسألة»**[1].

وأنجبت إسحاق ويعقوب وموسى ولم تكن هى الزوجة الوحيدة فقد تزوج عليها ضرائر... لميس بنت على بن الحارث أنجبت منه عبد الله وبكر وأم عمار... وتزوج أم عثمان بنت شعيب بن زيان فأنجبت منه إبراهيم وأم هشام بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ووهبه عمه وغيره من أمراء البيت المالك كثيرا من القصور والضياع والقطائع التى بلغ إيرادها فى السنة ٤٠٠٠٠ دينار.

ثم ولاه خناصرة بلدة من أعمال حلب حتى توفى عبد الملك واستخلف الوليد فأمره على المدينة المنورة وهو فى الخامسة والعشرين من عمره سنة ٨٧ هـ واشترط الأمير على الخليفة أن يكون مستقلا فى أحكامه لا يتقيد بالسوابق البعيدة عن العدل والفضل التى سنها أهل بيته وأسلافه من الخلفاء والولاة السابقين من بنى أمية ثم ضم إليه الحجاز كلها بعد ثلاث سنوات سنة ٩٠ هـ واتخذ لنفسه مجلس شورى يتكون من الفقهاء السبعة سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير والقاسم بن محمد وأبا بكر بن عبد الرحمن وخارجة بن زيد وعبيد الله بن عبدالله وسليمان بن يسار وقد وسع المسجد النبوى ورفع المنارة وجوف المحراب وحفر الآبار وأنشأ الخانات والفنادق فى طريق الحجاج إلى بيت الله الحرام.

وكان فى زهرة الشباب أميرا على المدينة يتبختر فى مشيته حتى اشتهرت بين

(١) خامس الراشدين ص ٥٩ ـ أحمد الشرباصى.

أهل البلد وقلدتها الفتيات... [فلما تولى الخلافة أصبح يمشى مشية الرهبان] ويرخى شعره ويسبل إزاره ويكثر من وضع الروائح العطرية على ثيابه حتى أصبح معروفا برائحته يرجو الناس من غسال ثيابه أن يجمعها مع ثيابهم لتنال بعض الأرج وتعود التجار أن يجلبوا إليه نفائس الثياب ليأخذ منها ما يناسب ذوقه وبلغ ثمن ثيابه من خز اليمن ٨٠٠ دينارا.

وكان يشترى الإزار الواحد بمائة دينار ومطرف الخز بثمانمائة درهم ويستخشنه مع أنه حرير.

ويتوق إلى الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمراكب والمعازف والألحان والشعر والمديح والأغانى حتى ضاق به صدر محمد بن كعب القرظى فوعظه فى ذلك فأخذته العزة بالإثم وقال: اتق الله يا بن كعب لا تكن ذبالة تضيء للناس وتحرق نفسها ثم ندم على هذا الرد السيء لآمر بالحسنى[1].

ومن الحوادث الهامة التى هدت كيانه وأثرت فى حياته وقلبتها رأسا على عقب وحولته إلى طريق آل الخطاب بعد أن كان فى طريق آل مروان...

أمره الوليد بن عبد الملك بتعذيب أحد المعارضين لحكمه خبيب بن عبد الله ابن الزبير بن العوام فضربه مائة سوط حتى أصيب جسمه بالحمى ثم صب عليه قربة ماء بارد وسجنه وهو مريض فلما ساءت حاله أفرجوا عنه ليموت خارج السجن.

وكان عمر يعترض على سياسة الحجاج ويضيق بتصرفاته ويقول لو جاءت كل أمة بخبثها وجئناهم بالحجاج لغلبناهم[2].

وما زالت الهوة بينه وبين الوليد تتسع بكيد الحجاج حتى نفث فى روعه أنه يعترض على حكمه ويستخف بولايته فآثر سيف بنى مروان على بن عمه وعزله... فقضى فترة تأمل وتدبر وتفقه فى ضيعة له بالشام تسمى السويداء كانت تغل عليه مائتى دينار فى العام تقريبا ثم ذهب إلى دمشق وهناك حم القضاء

(١) الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز ص ٤٥ عبد العزيز سيد الأهل.
(٢) الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز ص ٧٤ عبد العزيز سيد الأهل.

فمرض الوليد وأدركه الموت فى الرملة بفلسطين فأخذ عمر البيعة لسليمان بن عبدالملك ولم تطل مدته وكان أولاده صغارا لا يصلحون لولاية العهد بعده فاتخذها يدا عند الله وأوصى أن يكون خليفته عمر بن عبد العزيز ويليه يزيد بن عبد الملك قرنهما فى عهد واحد لئلا تكون فتنة فى الأرض.

وكان معاوية هو الذى نقل الخلافة الراشدة من على بن أبى طالب إلى نفسه وحولها إلى ملك عضوفى فورثها ابنه يزيد بن معاوية.

أتت الخلافة عمر منقادة إليه دون أن يسعى فى سبيلها أو يسفك الدماء من أجلها ويفسد فى الأرض وكتم رجاء بن حيوة أمر ولاية العهد حتى تم أخذ الميثاق على بنى مروان أن يسمعوا ويطيعوا للمسمى فى الكتاب المختوم ففعلوا فأعلن الأمر.

مات الخليفة سليمان بن عبد الملك وعاش الخليفة عمر بن عبد العزيز...

وكان من رأيه أن الإصلاح يبدأ من الرأس إلى الأعضاء ومن الأعلى إلى الأسفل.

وأول قضية بت فيها برأى وهى قضية قديمة متجددة فى كل عصر ومصر... مبدأ فرض الخلافة والسلطة أو الملك أو الولاية أو الرئاسة على الناس بالقوة من غير مشورة فأعاد الحق إلى نصابه فكانت فاتحة خير بينه وبين الرعية فاختاروه بحرية تامة.

ثم أبطل كثيرا من العادات والتقاليد والرسوم اختصر نفقة الحاشية والطعام والشراب والثياب كانت كلها قميص ورداء وسراويل وعمامة وقلنسوة وخفين باثنى عشر درهما بعد أن كانت فى أيام الترف بثمانمائة دينار..والحراسة والفراشة والركوب اكتفى ببغلته التى كان يركبها قبل الخلافة ثم ضم موكب المراكب التى جاءوا بها خيل مسرجة وفرسان يشهرون السيوف أكثر من ستمائة وبراذين. .. إلى بيت المال.

وكان العرف يقضى بأن ما استعمله الخليفة ميراث لأولاده من بعده وما ظل مختوما آل إلى الخليفة من بعده... وبلغه أن أحد أولاده اشترى فصا بألف درهم

فأمره أن يبيعه ويتصدق بثمنه ثم يشترى فصا بدرهم ويكتب عليه.

رحم الله امرءا عرف قدر نفسه...

وكان رأيه فى أموال وأملاك الأسرة الأموية المالكة سيئا قصور وضياع ومتاع وجواهر وتحف وذخائر، وما هى إلا امتيازات وعطايا وهبات أخذوها اغتصابا من سائر الناس كما يفعل الأخوة الكبار مع الصغار فى الميراث ويرى أنها تبلغ ثلثى ثروة الأمة كلها ولم يبق بين الناس إلا الثلث[1].

وسار بذلك فى فلك الخلفاء الراشدين وقدوتهم رسول الله ﷺ وانطبق عليه قول شوقى:

الاشتراكيون أنت إمامهم لولا دعاوى القوم والغلواء

وبدأ بنفسه فرد القطائع التى كانت تحت يده ورهن إشارته وضمن ملكه... فى الحجاز والشام ومصر واليمن والسويداء وخيبر وفدك بالحجاز وبدا وجرين بالشام وجبل الدوس والمكيدس باليمن وباع ما عنده من متاع وفراش ومراكب وثياب وعطور بثلاثة وعشرين ألف دينار ضمها إلى بيت المال ثم ثنى بزوجته فاطمة فجردها من الحلى والجواهر والمظاهر هدايا وعطايا عمه عبد الملك وإخوتها.. وكانت واسطة العقد بين الخلفاء فجدها مروان وأبوها عبد الملك وأخواها الوليد وسليمان وزوجها عمر وأخواها هشام ويزيد. فهى أميرة بين سبعة خلفاء.

ومع ذلك خيرها بين الجواهر والمظاهر والنعيم والمتاع فاختارته على كل ذلك ولولا أنها كانت عابدة قانتة طائعة لحدثت بينهما أزمة طاحنة... ووقفت مع إخوتها: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾[2].

والطيور على أشكالها تقع.

وتشفعوا بعمته وابنه فلم يقبل الشفاعة وأحدث هذا الموضوع فجوة واسعة

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١١٥ لابن الجوزى.
(٢) سورة النور آية: ٢٦.

وهوة كبيرة وأزمة شديدة بينه وبين أهل بيته ولكنه لم يبال.

وكان من رأيه التدرج فى رد المظالم إلى أهلها خشية الفتنة التى تؤدى إلى سفك الدماء وهياج الأمراء فتحدث حرب أهلية وبذلك حقق السياسة الشرعية لأن الرسالة استمرت فترة من الزمن فى التدرج حتى اكتمل الدين قبل موت الرسول بقليل وكان هذا الكمال دليلاً على قرب أجل الرسول.

وظلت الأصنام حول الكعبة بعد الرسالة واحدا وعشرين عاما فلم تسقط إلا بعد فتح مكة سنة ٨ هـ.

وأبى عمر تركيز السلطة فى يد واحدة فهذا شىء لا يطاق فى نطاق الطاقة البشرية...

واليد وحدها لا تصفق... وكان لرسول الله أصحاب وأنصار وأعوان وأمناء وقواد وأهل شورى وولاة وسفراء وكتبة الوحى وجباة للزكاة.

وكان عمر يعطى طلاب العلم مائة دينار فى العام ÷ ١٢ = ثلث ٨ دينارا مرتبا شهريا ليغنيهم عن السعى فى طلب المعاش ويفرغهم لطلب العلم.

وهذا مأخوذ من الحديث كان أخوان على عهد النبى ﷺ... يأتى أحدهما رسول الله ﷺ والآخر يحترف فشكا المحترف أخاه فقال له «لعلك ترزق به» [(١)] وقد حققت الدولة الإسلامية أعلا درجة فى مجانية التعليم فهى تحمل عن الأسرة عبء الإنفاق على طالب العلم... وكان من ذلك تقديم الخبز ثم بدلوه بوجبة الغذاء... والمرتبات الشهرية والمكافآت للمتفوقين...

وسبقت مجانية التعليم الدينى.. نظيرتها مجانية التعليم المدنى أو الوطنى بقرون طويلة ألف عام وأكثر ولكنهم دفنوها لأغراض فى نفوسهم ونشروا الأخرى على كل لسان وفى كل مجال واعتبروا طه حسين بطلا نادى بمجانية التعليم المدنى. مع أنه بدأ حياته بالتعليم المجانى بالأزهر.

ومنع التعذيب فى السجون والمعتقلات والمنافى لاستخراج الإعترافات المزورة

---

(١) حديث ٨٤ فى رياض الصالحين للنووى باب اليقين والتوكل.

والحصول على ضرائب غير عادلة ومكوس مجحفة، وحرر المساجين من الأغلال والقيود التى تحد من حريتهم فى الصلاة ومن حركاتها القيام والركوع والرفع والجلوس للتشهد والسجود.

وتعدى رفقه الإنسان إلى الحيوان الأعجم فأمر ألا يزيد حمل الجمل عن ستمائة رطل بخفض أربعمائة عما كان عليه من قبل فتحديد حمل السيارة أو العربة أو القطار أو السفينة من الركاب والبضائع فكرة قديمة لأن الزيادة فوق الطاقة تعرض الحامل والمحمول للخطر... الوقوع والموت والغرق إلخ.

ونهى عن استعمال المناخس، وأعفى الفقراء من رسوم التقاضى وجعل لكل أعمى قائدا يأخذ بيده ويخدمه من الأسرى فى الحروب بين المسلمين والكفار.

وكتب منشورا إلى عماله فى المدائن والقرى وأمراء جنده أن يجتنبوا الأشغال عند حضور الصلوات وأن يكون لهم راحة أسبوعية كل جمعة يوما يجمون فيها أنفسهم وكرامهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ووحد المكاييل والموازين فى الدولة.

أخذ بمبدأ التعويض العادل عما يلحق بالرعية من أضرار تقع عليهم من موظفى الحكومة وعمال الدولة وهو بذلك سابق للقوانين الحديثة.

العامل ضامن لما تحت يديه من العهدة من أهمل فعليه رد النقص من ماله.

كان يرى أن إطعام الأكباد الجائعة أولى من كسوة الكعبة بأستار جديدة قبل أن تبلى القديمة. وهو رأى جدير بالنظر والعمل وليت الدول المتعاقبة أخذت به.

كان لا يستعين بعامل أو جاب خراج وصدقات أو قائد أو معلم أو سياف أو قائد حرس أو شرطى أو قصاص أو أمين إلا اختبره ظاهرا وباطنا لأن الموظف يمثل الدولة، وكان يراجعهم بعد العمل حتى يضمن استقامتهم على الجادة فهم قدوة لغيرهم وبذلك سبق الدولة الحديثة التى تأخذ بمبدأ وضع التقارير السرية عن الموظف بواسطة رؤسائه كل عام وليت الأمانة تراعى بدلا من المحسوبية.

أجرى امتحانا شخصيا لطالب وظيفة ولم يكتف بظاهر حاله وقدحاول أحد نهازى الفرص أن يتظاهر أمامه بالطاعة والعبادة ليمنحه ولاية أو يكل إليه عملا وكاد يغتر بمظهره فقال له مستشاره: لا تعجل حتى آتيك بخبره فلما جاءه قال له قد عرفت منزلتى عند أمير المؤمنين فما تجعل لى إن أشرت بك فى ولاية العراق

قال لك عمالتى سنة [وكان قدرها مليون درهم] قال فاكتب لى كتابا بذلك لأن الحديث الشفوى سهل الانكار ففعل.

عرض الكتاب على عمر فقال إن فلانا قد غرنا بالله فكدنا أن نغتر فلما سبكناه وجدناه خبثا كله.

سبق الدولة الحديثة بإعطاء الرعية بدل تالف أو فاقد فى التعامل.

ألغى السنة السيئة التى عمل بها أسلافه وأهل بيته من سب على بن أبى طالب على المنابر وجعل بدلها الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]. ومن سن سنة حسنة فى الاسلام فله أجرها وأجر من عمل بها بعده. من غير أن ينقص من أجورهم شئ.

أخذ بمبدأ السرعة فى رد المظالم واجراءات التقاضى ونغلب على كسل الموظفين وإهمالهم لما تحت أيديهم من حقوق الناس.

أباح لعامة الناس استخدام البريد الرسمى أو الأميرى أو الحكومى فى حمل الشكاوى ونقل الظلامات فى أنحاء الدولة القاصية المترامية الأطراف إلى العاصمة دمشق ولو كانت ضد حكام الأقاليم.

وقد تمنى الناس طول حياته ليرد عنهم مكاره ومظالم آل مروان وتمنى هؤلاء موته وأتت المصائب من الأحباب والأقارب ولم تتم فرحة الناس به ولم يطل عهده مات بعد عامين ونصف تقريبا من خلافته فى عز الشباب فى الأربعين من عمره سنة ١٠١ هـ.

وقيل أن أقاربه سموه خشية أن ينقل الملك من أيديهم وأن يضيع الدنيا التى دامت لهم فترة لأنه كان يرى أن القاسم بن محمد بن أبى بكر أحق الناس بالخلافة بعده فباءوا بإثم قتله حرصا على الملك العُضوضى والخلافة غير الراشدة ولم تدم لهم الدنيا فدالت دولتهم، بعد قليل قامت الدولة العباسية على أنقاضهم وحمل الفرس راية الخلافة والإسلام بعد العرب، ولم ينفعهم سم عمر بن عبد العزيز خامس الراشدين ونفس الزمان ونجيب بنى مروان ونور الظلام.

(١) سورة النحل آية ٩٠

منتهى التسامح

يجد كل إنسان مهما كان جنسه أو نسبه أو لونه أو لغته أو دينه أو وطنه فى الإسلام الرحمة المهداة والنعمة المسداة وأنا لا أفترى الكذب على الإسلام بالمبالغة ولا أرسل القول على عواهنه ولا أرسم صورة وردية ولو شئت لحشدت عشرات الآيات من القرآن الكريم والأحاديث عن الرسول الأمين [وقد سبق بعضها] لتوثيق القضية وتأييد الدعوى وكتابة حيثيات الحكم كما يفعل القاضى النزيه وإنما سأكتفى ببعض الأمثلة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2].

وفى الحديث «من لم يرحم الناس لا يرحمه الله»[3].

وإن الرحمة لتشمل الحيوان الأخرس أو الأعجم وقد سبق ذكر الأمثلة[4]

ومن هذه الرحمة المهداة عفو الرسول عن أهل مكة بعد الفتح الأعظم ولم يستثن إلا طائفة يطلق عليهم بالتعبير الحديث مجرموحرب..

وتمتع المحكومون ولو كانوا غير مسلمين بالأمن والأمان والحرية والحماية والرعاية فى ظل حكام مسلمين وقد ظهر هذا المعنى واضحا فى بداية الفتوحات الإسلامية الكبرى ثم أضيف إليه حين دخل الناس فى دين الله أفواجا الأكثريات التى تعيش وسطها أقليات غير مسلمة كالجزر فى وسط البحر.

أما ظهور الإسلام على غيره من الأديان كما ورد فى الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[5].

فهو ظهور حجة وبرهان كما فى موضوع موافقة الإسلام للعلم الحديث إذا قورن بالكتاب المقدس ظهر فضله ووضحت ميزاته وفى ذلك يراجع القارئ دراسة

---

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) سورة الحجرات آية ١٣.

(٣) حديث ٢٢٧ فى رياض الصالحين للنووى.

(٤) ص ١٤ من هذا المخطوط.

(٥) سورة الفتح آية ٢٨، ومثلها فى سورة الصف آية: ٩.

الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة تأليف موريس بوكاى. . . .

ومثل إباحة الطلاق بناء على قاعدة ارتكاب أخف الضررين فرغم ارتباط الزوجين بالغريزة الجنسية وتربية الأولاء والعشرة القديمة والجديدة والحب إياه وكان بينهما صراع الديكة وترويض النمرة لا ينتهى على كل صغيرة وكبيرة لم تفلح كل هذه الروابط فى التعايش السلمى.

لابد أن تسلم المرأة بأن القوامة فى الأسرة للرجل والسيادة فى البيت للزوج **﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾**[1] .

وفى الحديث **«لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها»**[2] .

وإن لم تسلم الزوجة بهذا الحق وكانت محبة للسلطة والسيطرة فسد الكون. . .

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[3] .

وغرقت السفينة فالمركب التى لها رئيسان تغرق ووقعت الجريمة فالطلاق من حق الزوج لأن خراب الدار واقع على رأسه وفيه فرصة الرجوع بعد الطلقة الأولى فى مدة العدة وبعدها بإذن الزوجة ومع هذا عدت المحاسن من جملة العيوب.

ظهور الحجة والبرهان على مدى الأزمان وفى جميع الأوطان والبلدان وقد أراد الله [جلت حكمته] أن تبقى الأديان وتعيش جنبا إلى جنب فى الدنيا: **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾**[4] وفى آية أخرى: **﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾**[5].

وأساس المعاملة بين المسلم وغيره هو الآية: **﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ**

(١) سورة النساء آية ٣٤.
(٢) حديث ٣٨٥ فى رياض الصالحين للنووى.
(٣) سورة الأنبياء آية ٢٢.
(٤) سورة هود آية ١١٨.
(٥) سورة الأنعام آية ٣٥.

يُحبُّ الْمُقْسطين. إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[1].

فهناك فرق واضح بين الكافر المسالم لا يمنع الله من بره والإحسان إليه ورعاية قرابته وصلة رحمه وقبول هداياه والأكل من طعامه، أما الكافر المحارب فله معاملة أخرى تقتضى الجهاد والغلظة والشدة ورد العدوان. . .

وهناك خلط فى الفهم بين الآيات التى خص بها الكافر المحارب فتشمل فى نظرهم الكافر المسالم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[2].

وهذا الخلط فى الفهم يؤدى إلى تشدد المتشددين وتعصب المتعصبين وليس هذا قاصرا على المسلمين بل هو فى اليهودية والنصرانية أيضا. . . ففى كل دين نصوص تدل على الإخاء بين البشر والتسامح والعفو عند القدرة ونصوص تدل على ردع المعتدى وعقاب الباغى.

فيأخذ كل إنسان ما تميل إليه نفسه إن كان ميالا إلى الحب والرحمة كارها لسفك الدماء تمسك بآيات القسم الأول وإن كان حقودا لدودا وضع آيات القسم الثانى فى غير موضعها وتأخذه العزة بالإثم فيأبى الرد إلى الجادة والاعتراف بالخطأ إذا ووجه بالصواب، ولا أقول الجهل إذا قورن بالعلم ويتعدى ذلك إلى وقوع الفتن وسفك الدماء بين أتباع المذاهب المختلفة ولو كان فى دين واحد. . .

وهذه بعض أنواع المعاملة الحسنة للكافر المسالم وتفصيلات البر والإحسان وقد وردت بها آيات وأحاديث كما سيأتى. .

العدل فى الأحكام:

يتأكد طلب العدل من المسلم مع أخيه فى حالة الخصام والاحتكام إلى القاضى وخصوصا فى أحوال قد تكون مظنة الهوى والعصبية مثل الخصومة بين

---

(١) سورة الممتحنة آية ٨. (٢) سورة المائدة آية ٥١.

كافر ومسلم أمام قاض مسلم.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾[1].

سرق طعمة بن أبيرق الأنصارى درعا من زميل له أنصارى مثله وادعى أنه برىء ورمى التهمة على يهودى هو زيد بن السمين فكان ثبوت التهمة على المسلم وبراءة اليهودى نصرا للعدالة وفخرا للمسلمين ودعوة للإسلام.

فلا تنفع الصداقة ولا تضر العداوة والكراهية: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[2].

صلة الرحم:

تبقى العروة الوثقى فى الدنيا بين المسلم والكافر: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

قدمت أم أسماء بنت أبى بكر الصديق وهى مشركة راغبة فى الصلة على ابنتها فاستفتت رسول الله ﷺ فى ذلك فقال: «**نعم صلى أمك**»[4].

وكان رسول الله إذا ذبح شاة قال: «**أهديتم منها إلى جارنا اليهودى**»...

وقبل رسول الله هدايا المقوقس عظيم القبط فى مصر جاريتين لهما مكان عظيم فى قومهما مارية اتخذها جارية ولدت له ابنه إبراهيم، وسيرين أهداها رسول الله لحسان بن ثابت... وثيابا يلبسها وبناء على ذلك يجوز لبس ثياب الأمم الأخرى ولو كانت كافرة... وبغلة يركبها.

وفى الحرب يكره أن يقتل المسلم أباه الكافر أو قريبه إلا إذا سب الله ورسوله[5].

---

(١) سورة النساء آية ١٠٥. (٢) سورة المائدة آية ٨

(٣) سورة لقمان آية ١٥. (٤) حديث ٣٢٥ فى رياض الصالحين للنووى.

(٥) تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام ص ١٨٣ لابن جماعة المتوفى ٧٣٣ هـ.

أداء الأمانة:

أبقى رسول الله بن عمه على بن أبى طالب فى فراشه ليلة الهجرة ليؤدى الأمانات إلى أهلها وهم كفار ولم ينتهز هذه الفرصة لأكلها وتحويلها سرا إلى المدينة فالتعامل مع الله لا مع الأشخاص

حماية الجار الكافر:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾(1).

حتى ولو قدم من دار الحرب لأداء رسالة أو طلب صلح أو تعلم علم وطلب أمانا أجيب إلى طلبه حتى تنتهى مهمته ويلحق به أولاده وأتباعه فهو فى حماية المسلمين معصوم الدم حتى يرجع وماله [لو مات] ينقل إلى ورثته.

الأكل من طعام الكفار غير المحرم عند المسلمين:

«وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ»(2).

زواج اليهودية والنصرانية:

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾(3).

النساء الشريفات العفيفات اللاتى لا يؤمن بحرية المرأة فى الفساد والفسق والفجور والخلاعة والميوعة والرقاعة والقول الصريح للمعنى القبيح: شيوعية الفروج وبالمناسبة فقد كان من جملة حملة نابليون على مصر ٤٠٠ بغيا لنشر الفساد إيمانا بحرية المرأة فى جسدها فتهبه لمن تهواه أو لمن يدفع أعلى سعر وأغلى مهر للبغى.

---

(1) سورة التوبة آية ٦.

(2) سورة المائدة آية: ٥.

(3) سورة المائدة آية: ٥.

عيادة المريض:

مرض غلام يهودى كان يخدم رسول الله ﷺ فعاده فى مرضه وعرض عليه الإسلام فأجاب طاعة لأبيه وختم الله له بالخير فأسلم وأنقذه من النار[1].

كان بين الشريف الرضى الشاعر القرشى المشهور وبين الصابى مودة وصحبة فرثاه بعد موته سنة ٣٨٤ هـ بقصيدة فى ديوانه[2].

التعزية عند المصيبة بالموت:

ذهب الحسن لتعزية رجل نصرانى :كان يزوره فى وفاة أخيه.

المعاشات:

وجد عمر بن الخطاب فى مروره وتفقده أحوال الرعية بنفسه سائلا يهوديا أعمى اعتذر عن الكدية بالجزية والحاجة والسن فأعطاه إعانة سريعة من ماله ثم فرض له معاشا من مال الدولة المسلمة قائلا لخازن بيت المال انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه، أكلنا شبيبته ونخذله عند الهرم وهذا من المساكين من أهل الكتاب[3].

وكانت المعاشات من بنود الصلح بين خالد بن الوليد وأهل الحيرة[4].

إكرام الضيف:

وفد على رسول الله كثير من الوفود منهم ستون رجلا من أهل نجران سنة ٩هـ وهم نصارى فأكرم رسول الله مثواهم طبعا ولم يكن الإسلام شرطا فى الإكرام وجادلهم بالحسنى فى شأن عيسى بن مريم ولم ينفع الجدال فطلب المباهلة فرفضوها وتم الأمر على دفع الجزية مع البقاء على دينهم وحفظ أموالهم...

ألفا حُلة تدفع على قسطين أحدهما فى صفر والثانى فى رجب وألفا أوقية من الفضة[5].

---

(١) حديث ٩٠٠ فى رياض الصالحين للنووى والخراج لأبى يوسف القاضى صـ ٢٣٥.

(٢) ديوان الشريف الرضى ١/ ٢٩٤.

(٣) الخراج لأبى يوسف القاضى صـ ١٣٦.

(٤) الخراج لأبى يوسف القاضى صـ ١٥٥.

(٥) الرحيق المختوم صفى الرحمن المباركفورى صـ ٥٠٦.

التعاون العلمى:

كان فداء بعض أسارى المسلمين على تعليم الواحد عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة. وهو أول مشروع لمحو الأمية بين المسلمين.

وقد تعلم كثير من الكفار فى مدارس المسلمين وجامعاتهم فى ظل حضارتهم الزاهرة فى بغداد وقرطبة والقاهرة ولما قامت الحضارة الحديثة أرسل المسلمون بعثات تعليمية كثيرة إلى فرنسا وانجلترا وأمريكا وروسيا وتبادلوا المدرسين. . .

وقد وصل كثير من أطباء النصارى إلى منزلة عالية عند الخلفاء فى عصر الرشيد وابنه المأمون.

فداء الأسرى:

لا يفرق الحاكم المسلم بين الأكثرية المسلمة والأقلية غير المسلمة إذا وقعت حرب كان من نتيجتها تبادل الأسرى بين الطرفين فالحكومات المسلمة ترعى مصالح رعاياها ولو كانوا غيرمسلمين.

ومن ذلك أن ابن تيمية رحمه الله أصر على فك أسرى غير المسلمين معهم حين وقعوا أسرى فى يد التتار فهم مجندون معهم وحلفاء لهم.

الميراث لأهل ملته:

إذا مات واحد من أهل الذمة دون وارث ترد تركته إلى أهل ملته ولا يأخذها بيت مال المسلمين[١].

وقد أصدر الخليفة المقتدر العباسى سنة ٣١١ هـ ٩٢٣م مرسوما بذلك فى حين أن تركة المسلم الذى ليس له وارث ترد إلى بيت مال المسلمين.

القرض الحسن بضمان الرهن:

توفى رسول الله ودرعه مرهونة عند يهودى فى ثلاثين صاعا من شعير[٢].

---

(١) الفاطميون فى مصر - حسن ابراهيم حسن صـ ١٩٧.

(٢) حديث ٤٥٤ فى رياض الصالحين للنووى.

الوفاء بالعهد:

ورد فيه آيات وأحاديث كثيرة وقد حدثت بين المسلمين والكفار عهود من أشهرها صلح الحديبية ومن خلق المسلم الوفاء ولما اعتدى أهل مكة على حلفاء الرسول نصرهم وكان ذلك سببا فى فتح مكة وبلغت رحمة المسلمين مداها حين رحب المصريون الأقباط الأرثوذكس بالمسلمين لأن الرومان الكاثوليك قد اضطهدوهم عشر سنوات طوالا ساموهم فيها سوء العذاب حتى سميت هذه الفترة بعصر الشهداء والكل أتباع دين واحد وحقق المسلمون بعد الفتح آمال المصريين فتركوا لهم الحرية فى البقاء على دينهم دون تفرقة بين أرثوذكس وكاثوليك أو الإسلام لمن شاء أن يدخل فى الدين الجديد وتركوهم آمنين على نسائهم وأولادهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ورهبانهم.

بل تركوا لهم الحرية فى الاحتكام إلى ديانتهم فى الأحوال الشخصية وإن كانت باطلة فى نظر المسلمين ومن ذلك زواج المحارم عند المجوس بشرط ألا يحدث منهم نقض للعهد كالتجسس لصالح الأعداء والدلالة على العورات وفتح الثغرات وإفشاء أسرار الدولة والخيانة العظمى والقيام بدور المنافقين وما سمى فيما بعد بالطابور الخامس أو صدور أفعال مخلة بالشرف.

وبعد ظهور الإسلام ثارت الفتن فى ممالك أوربا وإيطاليا وألمانيا وفرنسا بين الكاثوليك والبروتستانت لدرجة أنهم حرموهم من تولى الوظائف العامة والتمثيل النيابى فى مجالس الأمة والشورى...

بل إنهم فرضوا عليهم بقوة القانون خدما كاثوليك للتجسس عليهم[1].

وكانت هناك حروب طاحنة وفتن عظيمة بين طوائف المسلمين أيضا ـ الشيعة والأمويين والزبيريين... والعباسين والخوارج وأهل السنة والمعتزلة والقرامطة والفاطميين والعباسيين إلخ.

ولهذا الموضوع كتاب مخصوص هو قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام تكفل بشرحه وتوضيحه وذكر الأمثلة الكثيرة من تاريخ الديانتين الدكتور توفيق الطويل، ومن أفظعها ما فعله الكاثوليك فى باريس سنة ١٥٧٢م فقد انتهزوا

---

(١) قصة الاضطهاد الدينى صـ ١٢٩ د توفيق الطويل.

فرصة عيد القديس سان بارتليو وفتكوا بثمانية آلاف من البروتستانت على أقل تقدير وأربعين ألفا على أكثر تقدير فى ليلة واحدة مجزرة بشعة عدوها فرحا كبيرا فأطلقت المدافع وأقيم القداس فى الكنائس وأرسلت التهانى ورسمت الصور والكل أتباع ملة واحدة لا يختلفون إلا فى المذهب فكيف يكون الحال عند اختلاف الدين و،الأديان بريئة براءة الذئب من دم بن يعقوب مما ارتكب باسمها. . .

وهناك تلاعب آخر حمل النصوص الواردة فى الكفار المحاربين على المسالمين لتشويه صورة الإسلام وتصوير المسلمين بالغلظة والشدة على الناس أجمعين وتأييد دعوى انتشار الإسلام بالسيف لا بالرضى والإقناع والاختيار. . .

والأصل أن تكون الصلة بين الناس هى السلام: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(1).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(2).

والحرب ضرورة تقدر بقدرها وهى منع انتشار الدعوة والعدوان على المؤمنين. . . للتوفيق بين آيات الجهاد وآيات السلام والرحمة والإحسان إلى الناس أجمعين وسماح الله للناس بالاختلاف فى الدين. . . ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾(3).

وكذلك الحال فى آيات اليسر ودفع أو رفع الحرج واستخدام الرخص المباحة والمتاحة فى الساعة هناك من يتمسك بها ولا يعترف بغيرها وهناك من يتشدد ويظن أن العبادة هى أخذ النفس والناس بالشدة والحدة مع أن الظروف والأحوال تختلف. . . المؤمن يزيد إيمانه أحيانا وينقص أحيانا والإنسان ما بين صحة ومرض وقوة وضعف وعلم وجهل ونشاط وكسل وإقامة وسفر وصغر وكبر ويتعرض المتشدد لكل هذه الأحوال بحكم البشرية فيظن فى حال قوته وشدته أن الدنيا دائمة

(1) سورة الحجرات آية ١٣.

(2) سورة البقرة آية ٢٠٨.

(3) سورة الأنعام آية ٣٥.

وأن الحاضر هو كل الصورة.

وبذلك يجعل التيسير تفريطا وتهاونا وضعفا فى الدين ونقصا فى الإيمان واتباعا لغير سبيل المؤمنين وثغرة ينفذ منها العدو...

وهناك سنن مختلف فيها يأخذ العامل بها تاركها بالشدة والمنابذة فيقاطعه لدرجة أنه لا يلقى عليه السلام فى الشارع مع أنه من ذوى الأرحام وصلة الرحم فريضة يضعها فى مواجهة سنن مختلف فيها والعلماء بين شد وجذب ورمضاء ونار ومطرقة وسندان... كان الله فى عونهم ويكفى التسمية بأهل الذمة لقول الرسول: **«من آذى ذميا فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله ومن ظلم معاهدا أو انتقضه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب منه فأنا حجيجه يوم القيامة»**[1].

وعلى ذلك بنيت قاعدة لهم ما لنا وعليهم ما علينا وكانت معاهدة التحالف بين الرسول ومعه المؤمنون من جهة وبين من آثر البقاء على دينه ومنهم اليهود من جهة أخرى بعد الهجرة مباشرة إلى المدينة المنورة فلم يحافظوا على العهد بل نقضوه ولذلك قامت الحروب وكانت الغزوات.

ومعاهدة الرسول مع أهل نجران بعد غزوة تبوك سنة ٩ هـ وهم أول من أخذت منهم الجزية.

بل إن الوصية بأهل مصر كانت فى حياة الرسول: **«إنكم ستفتحون مصر وهى أرض يسمى فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم رحما وذمة»**[2].

الرحم هاجر أم إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن مواطنة مصرية أهداها فرعون ملك مصر لسارة خادمة وقد وهبتها لزوجها والصهر مارية مواطنة مصرية من قرية حفن بمحافظة المنيا أهداها المقوقس عظيم القبط فى مصر إلى رسول الله سنة ٧ هـ فتسرى بها وكانت أم ولده إبراهيم، وقد فتحت مصر على يد القائد عمرو بن العاص فى عهد الخليفة الراشد الثانى عمر بن الخطاب سنة ٢٠ هـ.

---

(١) جامع الأصول ٣/٢٥٧ والخراج لأبى يوسف القاضى صـ ١٣٥.

(٢) حديث ٣٢٦ فى رياض الصالحين للنووى.

ومعاهدة عمر بن الخطاب سنة ١٢ هـ مع صفريتوس أسقف بيت المقدس بعد فتحها وتولى معاوية بن أبى سفيان كتابة المعاهدة وشهد ثلاثة: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ونصها موجود فى كتب التاريخ القديمة والجديدة مثل محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية للشيخ محمد الخضرى وفى كتاب التعصب والتسامح للشيخ محمد الغزالى[1].

وأهل الذمة أهل الكتاب... التوراة لليهود والإنجيل للنصارى ومن لهم شبهة كتاب وبعض الصابئة والسامرة الذين يقيمون فى بلد الإسلام على أن تجرى عليهم الأحكام.

وعومل المجوس قياسا على معاملة أهل الكتاب معاملة أهل الكتاب»[2].

وبلغ من سماحة المسلمين أنهم سمحوا لهم بالوظائف الكبيرة فى الدولة فآثروا المحاسيب بالعوائد والفوائد والمكاسب والمناصب لدرجة أن الأقباط وهم عشر السكان ظفروا بنصف الوظائف تقريبا ثلث ٤٥٪[3].

وظلوا فى تقدم حتى وصلوا إلى ٩٠٪ من الوظائف عندما احتل الإنجليز مصر فأنقصوا النسبة وجعلوها ٣٠٪ وكان هناك شبه احتكار من الأقباط للوظائف المالية وشهد بهذه العيوب والطعون مستشرقون من أهل ملتهم.

وكانت بعض الضرائب تصل إلى جيوبهم ولا تستفيد منها الحكومة شيئا كما قيل:

وزير لا يمل من الرقاعه	يـولـى ويعـزل كـل ساعـة
إذا أهل الرشى صـاروا	إليه فأحظى القوم أوفرهم بضاعة

والشفاعة لأكل الحقوق وتعطيل الحدود.

---

(١) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية للشيخ محمد الخضرى ٢/٨.
والتعصب والتسامح صـ ٤٩ للشيخ محمد الغزالى.

(٢) التعصب والتسامح للشيخ محمد الغزالى صـ ٣٥١.

(٣) الفاطميون فى مصر.. أو لدى ترجمة حسن ابراهيم حسن صـ ١٩٨.

وفى مقابل الدفاع عنهم يدفعون الجزية وسبقت الإشارة إلى مقاديرها ٤٨ درهما للغنى و٢٤ للمتوسط و١٢ للفقير وبالدنانير ٤ دينارًا للغنى و٢ للمتوسط ١ للفقير كل عام.

وهناك طوائف كثيرة معفاة... العجزة والمرضى والشيوخ الكبار والصبيان الصغار والرهبان فى الأديار والقسس فى الكنائس..

وقد تستبدل بأنواع من السلع ما عدا الخمر والخنزير وترفع الجزية عمن أسلم ويعفى عن المبالغ المتأخرة التى وجبت عليه قبل الإسلام ولما أسلم كثير من أهل الذمة فى عهد عمر بن عبد العزيز نقصت موارد الدولة فاشتكوا إليه فقال إن رسول الله بعث داعيا ولم يبعث جابيا فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك.

ومن أنف من كلمة الجزية استبدلت بالصدقة على أن يضاعف المقدار كما فعل عمر بن الخطاب مع نصارى تغلب ووافقه الصحابة على ذلك.

وكان بعض الفرس يأنف من دفع الجزية ويفضل القتال فى صفوف المسلمين فأقر عمر بن الخطاب رفع الجزية[١] عنهم واستبدلت بانخراطهم فى جيش المسلمين[٢] وكان ذلك فى وقت مبكر سنة ٢٢ هـ فمن حشر فى الجيش أعفى من دفع الجزية كما نصت على ذلك معاهدة عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب لأهل أذربيجان[٣].

وفعل ذلك معاوية مع أهل أرمينية...

وتقدم لهم الدولة خدمات أخرى كالأمن الداخلى ولا يعفى المسلمون من التكاليف المالية فهم يدفعون الزكاة وصدقة الفطر والأضحية وكفارات الذنوب والصدقات والضرائب واسمها القديم المكوس إن لم تف الزكاة بنفقات الدولة على التفصيلات المعروفة فى كتب أحاديث الأحكام والفقه...

والضرائب من المصالح المرسلة بشرط تساوى أو تقارب الحكام مع الطبقة

---

(١) الفاروق عمر ٢/ ٤٥ محمد حسين هيكل.
(٢) أهل الذمة فى الإسلام حـ س ترتون ترجمة حسن حبشى صـ ٢٢٦.
(٣) إتمام الوفاء فى سيرة الخلفاء صـ ١٩ للشيخ محمد الخضرى.

الوسطى من مع المحكومين فى الإيرادات والمصروفات حتى ولو كانت من أجل الحرب أو الجهاد فى سبيل الله وفتاوى مشاهير العلماء مذكورة فى كتب التاريخ وهل هناك مصيبة أعظم من حرب التتار اكتسحوا العالم الإسلامى وقوضوا الخلافة العباسية فى بغداد وأراد الله أن ينحسر المد فى عين جالوت بقيادة مظفر الدين قطز ومن الرحمة منع التعذيب بسبب الجزية أو الخراج كالضرب بالسوط والقيام فى الشمس وصب الزيت المغلى على الرءوس وكان كل ذلك متبعا فى الامبراطورية الرومانية...

وقد مر هشام بن حكيم بن حزام بالشام على أناس من الأقباط يعذبون بما ذكر فأخبر الأمير بالحديث: **«إن الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا»**[1] فأمر بهم فحلوا، وتكليفهم بما لا يطاق من الأعمال الشاقة وحمل الأثقال وإنما يكتفى بالحبس دون تعذيب.

ومن الرحمة العدالة والمساواة فلا تؤخذ من فريق دون آخر إلا من سبق استثناؤه لعلة... وهى مرة واحدة فى العام ويأخذ وصلا بالاستلام يحميه من المطالبة والدفع مرة أخرى.

فلما أسلموا كان ذلك بكامل حريتهم ومحض إرادتهم دون أى شائبة إكراه من جانب حكامهم المسلمين وأضيفت إليهم الأغلبية... لا بالسيف كما يدعى الحاقدون وظلت حرية الاعتقاد محترمة لمدة ألف وأربعمائة عام خلافا لما يستجد من عمر الإسلام على ظهر الأرض فى مختلف الدول والأوطان والآيات والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة سبقت الإشارة إلى بعضها...

ومنها حديث الأعرابى الذى انتهز فرصة نوم الرسول فى القيلولة فى ظل شجرة فأخذ سيفه المعلق عليها وقال من يمنعك منى: فانتبه الرسول وقال: «الله» فسقط السيف من يده فأخذه رسول الله وقال: «من يمنعك منى» قال كن خير آخذ قال: «تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله» قال لا ولكن أعاهدك على ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلى سبيله[2] فلم يكرهه على الإسلام مع أنه كان معتديا غدارا وإنما اكتفى منه بالحياد وهناك من يحمل حرية الاعتقاد على

(١) حديث ١٦٠٦ فى رياض الصالحين للنووى

(٢) حديث ٧٨ فى رياض الصالحين للنووى.

المسلم المرتد وهذا جزاؤه القتل بعد أن يستتاب وقد ورد فيه الحديث: «من بدل دينه فاقتلوه»[1] وفى الموضوع أحاديث أخرى.

وقد دخلت شعوب كاملة فى الإسلام وتركت أديانها القديمة اليهودية والنصرانية فى الإمبراطورية الرومانية مصر وجيرانها فى الغرب ليبيا وتونس والجزائر ومراكش وتعدى الإسلام البحر الأبيض حتى سكن واطمأن حينا من الزمن فى الأندلس... والمجوسية والوثنية فى العراق وفارس والترك وبلاد ما وراء النهر تحت حكم الإمبراطورية الفارسية اعتنقه العرب والفرس والروم والسوريون والمصريون والسودان والحبش والأتراك والأكراد والبربر والهنود والمغول والصين.

بل إن هذه الشعوب لم تكتف بالدين ـ ولا يزال مقبولا منها ومن غيرها وإنما خطت خطوة أوسع فى التقرب إلى الله فتعربت تماما اتخذت اللغة العربية لسانا لها على مر السنين وهجرت لغاتها القديمة حتى ماتت ومنهم من بقى على لغته [الألفاظ المعبرة عن المعانى] ولكنه كتبها بحروف عربية كما حدث للفرس والترك وإن كان مصطفى كمال [الذئب الأغبر] قد ثار على الحروف العربية وكتب لغة قومه بحروف لاتينية جاعلا أوربا نصب عينيه وأمل حياته ومستقبل حزبه فخاب أملهما معا فى حياته وبعد مماته وظلت تركيا من الدول النامية ولم تلحق بالدول الأوربية المتقدمة وانخفضت عملتها الليرة لدرجة أن عشرة آلاف ليرة تساوى دولارا واحدا.

وحاول الإستعمار الحديث أن يعيد الكرة بنشر لغة المستعمر ولكنه فشل فى الدول العربية التى حماها الله بوجود القرآن فى ربوعها وأفلح فى دول أخرى فوجد ما يسمى بشعوب ناطقة بالإنجليزية وأخرى بالفرنسية وبلغ الأمر مداه حين ظلوا فى أعمالهم التى تعطيهم الوجاهة والامتياز والتفوق بل والسيطرة على عامة المسلمين سماحة وليس نزولا على حكم الضرورة لأنهم خبراء يندر وجودهم ولو فرضنا ذلك فمن السهل الاستغناء عنهم بعد فترة يتعلم المسلمون فيها الخبرة.

ثم يحلون محلهم بالتدريج، وكثير من الدول التى تؤمن بالقوميات تلجأ إلى

(١) فقه السنة ٢/ ٣٨١ متفق عليه.

هذه السياسة فتكون الأعمال عندها للأجانب بعقود لمدة عام يتجدد وتجتهد فى الاستغناء عنهم بأبنائها فى أسرع وقت والفضل لنشر التعليم وكثرة التخصص فيه وإن كان الدين واحدا.

وهل هناك أكثر من الوزارة والسفارة والولاية ائتمنهم الخلفاء على أسرار الدولة وأموالها فى جباية الضرائب أما الطب فكانت الأمانة فيه على الأرواح أما الترجمة فكانت الأمانة فيها على العلم والثقافة...

وهناك سابقة مشهورة يعرفها الخاص والعام والعالم والجاهل ذكرتها كتب السيرة الكبيرة والصغيرة فى الهجرة... ائتمن رسول الله عبد الله بن اريقط [وهو كافر مشرك] على مصير الدعوة حين اتخذه دليلا فى الصحراء بين مكة والمدينة وترك الطرق المعروفة المسلوكة وهى مهمة خطيرة وهنا يأتى السؤال كيف يكون الحال لو جار الهادى وحار الدليل وضل المرشد وخان الأمين...

بل سمح المسلمون من الحكام وظاهرتهم الأغلبية بفتح مدارس خاصة يعلو فيها صوت الإنجيل والثالوث على القرآن والتوحيد وهذا موجود فى الكنائس وليس فيه مشكلة بمقتضى حرية العبادة لهم فى دورها.

ولكن المشكلة فى أبناء المسلمين الذين يدخلون هذه المدارس فيأخذون حقنا سامة فلابد من الاحتياط حتى لا يسحب البساط من تحت أقدام المسلمين دين الأغلبية والحكام.

يدخل المسلمون أبناءهم فى هذه المدارس وإن كانت غالية وتجارة مربحة حرصا على مستوى التعليم والمعاملة الحسنة والنظافة والنظام ومن المؤسف أن يشتهر الأجانب بهذه المعانى دون المسلمين.

وقد دخلت هذه الساحة مدارس خاصة تتسم بالصبغة الإسلامية وتحافظ على هذه المعانى مناقسة وأولى بالمسلمين الأغنياء القادرين على دفع مصروفاتها أن يشجعوها.

وتعامل موظفيها [المدرسين وغيرهم] كما تعامل الشركات الخاصة موظفيها فتجزل لهم العطاء ولا تبخل عليهم بشىء من مكاسبها التى تأخذها من عرقهم.

أجانب فى مناصب هامة

الوزراء:

اتخذ المعز لدين الله الفاطمى وزيرا يهوديا هو يعقوب بن كلس أسلم وتأتى المسألة هل حسن إسلامه فكان الدين الجديد نابعا من قلبه أم بقى فيه مرض وحنين إلى دينه القديم وأحب ركوب الموجة العالية ومال مع الريح حيث تميل وراهن على الجواد الفائز فى السباق وليس هذا غريبا على أخلاق اليهود فهذه الصفة ظاهرة فى تاريخهم على امتداد العصور كل الظهور كما توحى برتوكولات حكماء صهيون والتلمود ومن مبادئهم الغاية تبرر الوسيلة والشيء من معدنه لا يستغرب قيل أمامه لو أسلم لصلح أن يكون وزيرا فأسلم طمعا فى الوزارة[1] والله أعلم بالسرائر ولد ونشأ فى بغداد ثم انتقل إلى الرملة بفلسطين وأصابته خسارة بعد عمله فى التجارة والسمسرة وهرب من الدين إلى مصر فى عهد كافور الأخشيدى فأسند إليه وظائف الجباية والخراج والعمارة وأسلم على يد كافور سنة ٣٥٦ هـ وكان بينه وبين الوزير جعفر بن الفرات أحقاد وأضغان بسبب التنافس على الوزارة والتحاسد على المهنة الواحدة فقلب له غريمه ظهر المجن واعتقله طمعا فى ماله وأطلقه بعد أخذ الفدية ثم حدثت أوبئة ومجاعات فاتصل بالمعز لدين الله الفاطمى لإنقاذ مصر من فساد الدولة الهرمة بدولة مسلمة جديدة وليدة وقدم عليه سنة ٣٦٢ هـ فقلده وظائف المالية والخراج والحسبة والأحباس [الأوقاف] وشئون القصر فى رمضان ٣٦٨ هـ ألف كتابا فى فقه الشيعة كان يقرأ فى مسجد الدعوة كل خميس وقرر فى الدراسة بالمسجد العتيق... وكان مرتب الوزير ٥٠٠٠ دينارا فى الشهر ومجموعها فى السنة ٥٠٠٠ × ١٢ = ٦٠٠٠٠ دينارا وعزل عن الوزارة سنة ٣٧٣ هـ وظل معتقلا فى القصر ثمانية أشهر ثم أعيد إلى منصبة وبلغ عطاؤه من العزيز مائة ألف دينار كل عام خلافا لما يأخذه الأولاد والأتباع فى الأعياد والمناسبات ومات فى عهد العزيز بالله (بن المعز) الذى قال له عند احتضاره «وددت لو أنك تباع فأشتريك بملكى أو تفتدى فافتديك بولدى»[1].

---

(١) الفاطميون فى مصر صـ ٢١٠ حسن إبراهيم حسن

وقال شاعر ناقد يعظم نفوذه:

تنصر فالتنصر دين حق	عليــه زماننا هــذا يــدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا	وعطل ما سواهم فهو عطل

فيعقوب الوزير أب وهذا العزيز بن وروح القدس فضل

عيسى بن نسطوريس.

استوزر المعز أيضا سنة ٣٨٠ هـ ٩٩٠م عيسى بن نسطوريس النصرانى، واستناب بالشام منشا اليهودى فمال كل منهما إلى اتباع دينه وحاباهم على حساب المسلمين فعزلهم من أعمالهم وولى أهل ملته حتى قال الرضى بن البواب الشاعر.

يهود هذا الزمن قد بلغوا غايــة	آمــالهــم وقــــد ملكـوا
العز فيهــم والمــال عندهمــوا	وفيهـم المستشـــار والملك
يا أهل مصر إنى نصحت لكــم	تهودوا فقد تهود الفلك[1]

فماذا يقول الشاعر لو كان حيا فى زماننا معاصرا لنا وأدرك دولة إسرائيل قائمة فى فلسطين وقاعدة فى القدس وشاهد أوج مجدها وعز انتصارها على العرب المسلمين أجمعين وفلسطين بالذات ١٩٦٧ ثم انحسر هذا المد فى سنة ٩٧٣ وظل نفوذهم فى عهد ابنه العزيز بالله بسبب زواجه من نصرانية[2] حتى تقدمت إليه إمرأة بعريضة جاء فى صدرها: بالذى أعز اليهود بمنشا، والنصارى بعيسى بن نسطوريس وأذل المسلمين بك إلا أنصفتن ثم اختفت على الفور...

وكانت نتيجة الطيش والتعصب والظلم أن قبض عليهما وغرم الأول ٣٠٠٠٠ دينارا والثانى مبلغا غير محدد وعزلا عن الوزارة وردت المناصب لأهلها من المسلمين... ثم ظل بين رفع وخفض حتى قتله غريمه ومنافسه وخليفته على الوزارة بن عمار[3].

(١) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ٢/١٢٩ للسيوطى.

(٢، ٣) الفاطميون فى مصر صـ ١٩٩ ـ ٢٠٢ حسن إبراهيم حسن.

زرعة بن عيسى:

استوزر الحاكم بأمر الله سنة ٤٠١ هـ زرعة بن عيسى.

استوزر الآمر بأحكام الله الخليفة الفاطمى أبا نجاح النصرانى المعروف بالراهب سنة ٥٢٢ هـ فاستبد بالمسلمين حتى ثاروا عليه وانتهى الأمر بقتله

بهرام الأرمنى:

واستوزر الحافظ لدين الله سنة ٥٢٩ هـ تاج الدولة بهرام الأرمنى المسيحى فحابى أهل دينه على حساب المسلمين لدرجة أنه عزلهم من وظائفهم وأعمالهم وولى بدلهم الأرمن الذين زادوا فى عهده حتى وصلوا إلى ثلاثين ألفا فاستنجد الناس برضوان فقام بالثورة ضده طمعا فى منصب الوزارة وانتهى الأمر ببهرام إلى الرهبنة.

أبو سعيد التسترى:

تولى نظارة الخاصة لأم الخليفة المستنصر بالله وغلب بنفوذه منصور بن صدقة القلاعى فعزل المسلمين من مناصبهم وعين بدلهم أهل ملته حتى قال بن الرضى البواب أبياته المتقدمة ونتيجة لدسائس القصر انقض عليه ثلاثة من جنود الترك وقتلوه.

نوبار باشا:

إرتبن نوبار وهو أرمنى مسيحى من مواليد أزمير بتركيا تولى رئاسة الوزراء فى عهد إسماعيل فى العصر الحديث فأقر امتيازات الأجانب على حساب أصحاب البلاد وأصبح الأجنبى يقتل الوطنى فلا يعاقب بقانون البلد الذى يعيش فيه المجنى عليه والجانى ومكان الجريمة لأنه حماية يسلم إلى سفارة دولته وهى التى تحاكمه وغالبا ما كانت تحابيه ولا تقتص منه ومات سنة ١٨٩٩م فى عهد عباس حلمى.

بطرس غالى:

وفى القرن الماضى كان بطرس غالى رئيس الوزراء... ناظر النظار ويقوم مقام الخديوى عند سفره فحابى الأقباط وباع لهم أملاك الدولة بثمن بخس حتى

للإنجليز ومد امتياز قناة السويس وانتهت حياته أخيرا بالقتل على يد شاب مسلم هو إبراهيم الوردانى سنة ١٩١٠م فى عهد عباس حلمى وبعد فترة جاء سميه بطرس غالى المعاصر لنا وكان وزير دولة للشئون الخارجية وظل فى منصبه فترة طويلة حتى اختير سكرتيرا عاما للأمم المتحدة.

مريث غالى:

كان وزيرا قبل الثورة وبعدها.

يوسف قطاوى باشا:

استوزر سعد زغلول فى وزارة دستورية، يوسف قطاوى باشا وهو يهودى.

توفيق باشا دوسى:

مكرم عبيد ١٣٠٧ ـ ١٣٨٠ هـ ١٨٨٩ ـ ١٩٦١م كان سكرتير حزب الوفد وهو أكثرية مسلمة فى شعب مصر لمدة خمسة عشر عاما وتولى وزارة المالية وهى من أخطر الوزارات تتحكم بفلوس الدولة فى كل كبيرة وصغيرة وليست هينة القدر ضئيلة الخطر مما يسميه الناس فى أيامنا أى كلام وقد نجح فى الانتخابات كمرشح لحزب الوفد [حزب الأغلبية] وهو قبطى مصرى ضد ياسين أحمد باشا نقيب الأشراف فى قنا عن حزب من أحزاب الأقلية.

بل إن بعض مجالس الوزارات تولى فيها أكثر من واحد واثنان وثلاثة...

وهذا منتهى التسامح فهل ترضى أى أكثرية مسيحية أو يهودية أو وثنية أن تولى الوزارة عندها مسلما من الأقلية كما يفعل المسلمون.

وفى كثير من الدول النصرانية والوثنية أقليات مسلمة مهما قالوا بالعدل والإنصاف والحرية والمساواة ونادوا بحقوق الإنسان.

وليس الأمر قاصرا على مصر وما تغلب عليها من مختلف الدول بل كان الحال فى بغداد عاصمة الخلافة العباسية على هذا النحو أيضا

نصر بن هارون:

تولى الوزارة أكثر من مرة كانت إحداها سنة ٣٦٩ هـ.

تولى الوزارة أكثر من مرة كانت إحداها سنة ٣٦٩ هـ.

عبدون بن صاعد:

دخل الوزير عبدون بن صاعد على القاضى إسماعيل بن إسحاق فقام له مرحبا فأنكر الجالسون قيام القاضى المسلم للوزير النصرانى فقال: إن هذا من البر الوارد فى الآية: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[١]، فوافقوا على قوله.

أبو الحسن بن غزال الطبيب اليهودى السامرى:

استوزر ملكشاه لنفسه أمين الدولة أبا الحسن بن غزال الطبيب اليهودى وبلغت ثروته عند قتله ثلاثة ملايين قطعة ذهبية وعشرة آلاف من الكتب النادرة المخطوطة ولم تكن الطباعة قد ظهرت بطبيعة الحال... وجواهر وتحف لا توجد إلا عند الخلفاء.

رفاق السلاح

اختار بعض أهل الذمة الانخراط فى صفوف جيوش المسلمين بدل دفع الجزية فقبل ذلك منهم... وسقطت الجزية عنهم كما سبق.

استعان رسول الله بيهود بنى قينقاع فرضخ لهم ولم يسهم[٢].

أمر عمر بن عبد العزيز بانخراط النصارى فى جيش المسلمين[٣].

حارب جراجمة الشام فى جيش المسلمين.

حارب اليهود مع المسلمين العرب والبربر فى الأندلس ضد الرومان. كان بتدمر جماعة من اليهود يبلغون ألفين يحاربون مع نور الدين ضد الصليبيين.

---

(١) سورة الممتحنة آية ٨.
(٢) تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام صـ ٢٢٢.
لابن جماعة المتوفى ٧٣٣ طبعة أولى ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥.
(٣) طبقات ابن سعد ٢/ ١٦٢.

في الشرطة

استعان مروان بن الحكم بمائتى رجل مسيحى من أيلة فى ضبط المدينة.

مأمور سجن:

تولى إدارة سجن بالقرب من الكوفة رجل مسيحى سنة ٢٦ هـ تحت إمرة الوليد بن عتبة.

الـــــولاة

كان فى مصر عامل بيزنطى يسمى ميناس ولاه هرقل على الوجه البحرى وأبقاه عمرو بن العاص فى منصبة ومقره الأسكندرية عاصمة البلاد فى عهد البطالسة والرومان ثم خلفتها الفسطاط فى عهد العرب كما هو معلوم واتسع صدرها وامتدت أطرافها حتى سميت القاهرة الكبرى ولها كتب مخصوصة تبحث فى خططها وأحيائها ومبانيها وشوارعها وآثارها وجوامعها ومدارسها إلخ مثل خطط المقريزى والخطط التوفيقية لعلى مبارك.. واستناب المعز لدين الله الفاطمى سنة ٣٨٠ هـ ٩٩٠١م على الشام منشا اليهودى.

وسبق ذكر العريضة التى تضمنت نقدا شديد اللهجة موجها إلى الخليفة جاء فى صدرها بالذى أعز اليهود بمنشا والنصارى بعيس بن نسطوريس وأذل المسلمين بك إلا أنصفتنى على يد امرأة اختفت على الفور خوفا من بطش المعز.

استعمل المسلمون أحد اليهود ٣٧٩ هـ واليا على سيراف.

كان والى قوص بالصعيد الأقصى ماساك أخو بهرام الأرمنى وزير الحافظ فاشتكى أهل الإقليم من ظلمه واستباحة أموالهم فثاروا عليه وقتلوه[١].

قـــــواد

تولى أبو العلاء عبيد الله بن فضل النصرانى قيادة الجيش فى عهد عضد الدولة.

---

(١) الفاطميون فى مصر جـ٢١٥ حسن إبراهيم حسن.

ولى ابن الفرات قيادة الجيش رجلا مسيحيا ولامه الناس على ذلك فاحتج بعمل الخلفاء السابقين.

وتولى السيد وهو نصرانى قيادة الجيش فى الأندلس وبعد الاحتلال الإنجليزى لمصر كان قواد جيش مصر والسودان من الإنجليز وهم نصارى كما هو معلوم على جيش من المسلمين. فلم تحدث ثورة بين الجنود المسلمين على قائد نصرانى.

الجباة

تولى إثنايوس الرهاوى ديوان الخراج لعبد العزيز بن مروان وكان تحت يده فى الديوان عشرين كاتبا ثم أصبحوا أربعة وأربعين.

تولى ابن علان [وهو يهودى] جمع خراج البصرة ووصل غناه أنه دفع للسلطان فى إحدى المصادرات مائة ألف دينار [من أين لك هذا].

وكان محتميا بالوزير نظام الملك ولكن الولسى كاد له عند السلطان ملكشاه فقتله غرقا.

سفراء

ذهب البطريرك ديونيسيوسى إلى مصر سنة ٢١٦ سفيرًا للمأمون إلى بعض الثوار ليردهم إلى الجماعة بعد أن شقوا عصا الطاعة.

ندماء

كان الأخطل الشاعر النصرانى يدخل على عبد الملك بن مروان دون إذن وفى عنقه صليب من الذهب.

أطباء

كان ابن آثال النصرانى طبيب القصر لمعاوية بن أبى سفيان .

كان جورجيوس بن بختيشرع طبيب القصر للمنصور العباسى فى بغداد.

كان يعقوب بن إسحاق الكندى طبيب القصر للمأمون العباسى فى بغداد.

كان موسى بن العازار طبيبا للمعز لدين الله الفاطمى فى القاهرة.

كان أبو الفتح سهل بن معشر النصرانى طبيب الحاكم بأمر الله فى القاهرة.

كان موسى بن ميمون (اليهودى) طبيب صلاح الدين الأيوبى فى القاهرة.

مترجمون

وفى مهنة الترجمة تكون الأمانة على العلم.

كان حنين بن إسحاق النصرانى أشهر المترجمين لكتب أرسطو وغيره فى زمن المأمون والمتوكل العباسيين.

وقد أباح حنين لتلاميذه الاستفادة من كتبه فأصبحت بمثابة المكتبة العامة.

وكان زميله فى المهنة يوحنا البطريق مترجما لكتب الطب والفلسفة.

وهناك الكثير من المهن الأخرى مثل التجارة والنسيج والصباغة والزجاج والسفن والزراعة والصيرفة.

فماذا وجد المسلمون فى مقابل هذا التسامح الذى بلغ المدى؛ لم يجدوا إلا المذابح والمجازر ومحاكم التفتيش ويجد القارئ وصفها فى الفصل الأول من كتاب ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى للمؤرخ محمد عبد الله عنان وقد صبت جام غضبها على العلماء أيضا.

والفصل الرابع من كتاب قصة الاضطهاد الدينى بين المسيحية والإسلام للدكتور توفيق الطويل ويكفى من سيئاتها أنها قضت على الإسلام تماما فى الأندلس ولم يستطع المسلمون بعد خيبة الأمل وعار الهزيمة وزوال الدولة أن يعيشوا تحت أعلام الصلبان مع أن معاهدة التسليم لغرناطة آخر المعاقل كانت حافلة بالشروط سبعة وستين شرطا تكفل لهم الأمن على الدين والنفس والمال والولد والأرض والعرض.

ونصها موجود فى كتاب نفح الطيب ـ الجزء الثانى للمقرى ولكنها لم تجد أهل الوفاء.

﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾[1].

وإنما وجدت أهل الغدر ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾[2].

هذه بقع سوداء فى تاريخ النصرانية ولا يخلو تاريخ المسلمين من البقع السوداء [والحق يقال] فهم منى وأنا منهم وأول هذه البقع الصراع على السلطة فقد كان عنيفا لدرجة استعانة الأخ المسلم بالعدو الكافر المحارب ذى الشوكة الذى ينتهز الفرص ليأكل الاثنين معا مرة بعد مرة. . . سيقع الحليف تحت نفوذه بعد أن يضعف فى القتال وبعد أن تكشف عوراته. . . على أبيه أو أخيه أو ابن عمه فى النسب والدين والإنسانية فيضيع الاثنان معا.

وقد ضرب الحكماء لذلك مثلا بالثيران الثلاثة التى حالفها الأسد واحدا بعد الآخر وأكلها جميعا على فترات وندم الأخير حين لم يبق إلا هو وجاءت نهايته فقال أكلت يوم أكل الثور الأبيض.

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[3].

وكتب التاريخ حافلة بهذه البقع السوداء ابتداءًا من الفتنة الكبرى التى تلتها فتن صغرى متوالية ولم يكن أمام مسلمى الأندلس إلا التنصر فسموا العرب المتنصرين أو الهجرة والهرب إلى المغرب ومعهم ما خف حمله وغلا ثمنه أو العذاب حتى الموت أو الاستشهاد فى المعركة.

وظلت محاكم التفتيش تؤدى عملها عدة قرون حتى مطلع العصر الحديث فألغاها نابليون عند احتلاله لأسبانيا وكانت تلك احدى حسناته. .

محا هذا العار وأزال هذا الرجس وأسقط هذا السيف المسلط على العقائد والقلوب والرقاب، أما الحسنة الأخرى فهى اصطحاب العلماء فى الحملة الفرنسية على مصر ومن آثارهم العلمية كتاب وصف مصر الذى عربه عن الفرنسية زهير

---

(١) سورة الاسراء آية: ٣٤.

(٢) سورة الأعراف آية: ١٠٢.

(٣) سورة هود آية: ١١٧

الشايب فى عدة أجزاء ومن حسناتها فك رموز اللغة الهيروغليفية بواسطة شامبليون عند مقارنة اللغات الثلاث على حجر رشيد أما الأقليات الكافرة تحت حكم المسلمين فقد ظلت تتمتع ألفا وأربعمائة عام بالرحمة المهداة والنعمة المسداة ومنتهى التسامح كما ذكرنا فى بداية البحث ونهايته وشتان ما بين الدينين أو العهدين قال أبو العلاء المعرى:

وطاولت الأرض السماء سفاهة وفاخرت الشهب الحصى والجنادل

وكانت المصيبة الكبرى التى وقعت على الدول الاسلامية فى العصر الحديث الهزائم المتلاحقة لدولة الخلافة وتقسيم تركة الرجل المريض بين انجلترا وفرنسا والاحتلال السافر والاستعمار المباشر ووجدت الامتيازات الأجنبية التى حصل عليها رعايا هذه الدول فأصبحوا يحاكمون أمام قنصلياتهم التى بلغت ١٧ قنصلية تطبق كل منها قانونا أجنبيا، وغالبا ما كانوا ينحازون لأهل ملتهم ووطنهم على حساب الحق.

ومن هذه القضايا التى اختصت المحاكم القنصلية بنظرها مسألة نزع الملكية فحصل هؤلاء الأجانب على أراضى المصريين بواسطة الربا الفاحش.

وبعد جهاد مرير تحولت إلى المحاكم المختلطة وانتقلت اختصاصاتها إلى المحاكم الوطنية بعد إلغاء الامتيازات ومن القواعد المعروفة فى الإسلام تطبيق الشريعة والقانون على جميع السكان وإن اختلفت جنسياتهم.

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾[1].

---

(١) سورة المائدة آية: ٤٩.

رصيد المؤمن

الإيمان دعامة قوية وأساس متين يقوم فوقه بناء الأعمال الصالحة الفاضلة والمصالح المرسلة من طبقة واحدة أو من عدة طبقات بالآجر أو الحجر أو المسلح فيصل إلى العمارات العالية أو الأبراج المشيدة أو ناطحات السحب لمن أراد أن يستزيد من فعل الخَيْر وأول ذلك الإيثار كما فعل الأنصار.

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وقد تصدق أبو بكر الصديق بماله كله فلما سئل ماذا أبقيت لأهلك قال: أبقيت لهم الله ورسوله، وتصدق عمر بنصف ماله فلما سئل نفس السؤال قال: أبقيت لهم النصف.

وأراد سعد بن أبى وقاص أن يتصدق بثلثى ماله عندما كان مريضا سنة ٩ هـ لأنه غنى ولا يرثه إلا ابنة واحدة فرفض رسول الله ذلك فانتقل إلى النصف فقال له: لا ورضى أخيرا بالثلث حرصا على حق الورثة فى مال أبيهم الغنى فلا يصلون إلى درجة الفقر الذى يضطرهم إلى السؤال[2].

ولا يظن أحد أن فعل الخير يذهب هدرا أو يصير هباء منثورا أو يلقى فى البحر أو يضيع فى التيه أو يتبخر فى الجو ما دامت النية فى فعله خالصة لله؛ فعل الخير رصيد المؤمن محفوظ عند الله فى المصرف الأعلى سيعود حتما بوعد صادق من صاحب المصرف الأعلى فى صورة عظيمة وشكل حسن .

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[3]. ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾[4]. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[5].

---

(١) سورة الحشر آية ٩. (٢) حديث ٦ فى رياض الصالحين للنووى.
(٣) سورة الزلزلة آية ٧، ٨. (٤) سورة المزمل آية ٢٠. (٥) سورة البقرة آية ٢٦٢.

﴿إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾[1].

والآيات فى هذا كثيرة معلومة صكوك موثقة عند الله يدخرها لصاحبها عند الحاجة إليها فى الدنيا والآخرة رصيد من الذهب الحر والمعدن النقى والعيار العالى وليس من الورق الذى يفقد قيمته على مر الزمان وفى الأحاديث: **«من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة»**.

«ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه»[2].

وشتان ما بين الكربين أحدهما يسير محتمل فى الدنيا والآخر عسير صعب فى دار البقاء.

«احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة»[3].

وغيرها كثير...

الأعمال الصالحة قد تكون مالا يبذل ونفقة تؤدى: **﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**[4].

وقد تكون جهدا يسيرا وعملا خفيفا مثل إماطة الأذى عن الطريق وإزالة موانع المرور كالشجر والصخور.

«عرضت على أعمال أمتى حسنها وسيئها فوجدت فى محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق ووجدت فى مساوئ أعمالها النخامة تكون فى المسجد لا

---

(١) سورة لقمان آية ١٦.

(٢) حديث ٢٤٥ فى رياض الصالحين للنووى.

(٣) حديث ٦٢ سابق.

(٤) سورة التوبة آية ٩٩.

تدفن»[1].

«دخل رجل الجنة بسبب شجرة قطعها كانت تعترض الطريق»[2].

وليس فيه غرامة بالمرة، وإنما هو عون الضعيف.

وتلبية ذى الحاجة اللهوف ونصر المظلوم وخير ما يفد إلى البال فى هذا المجال ليكون هو المثال ما فعله موسى مع ابنتى شعيب حين وجدهما لا تطيقات مزاحمة الرجال فى سقى الغنم وهما مضطرتان إلى العمل بسبب كبر أبيهما وهما غريبتان عن موسى فى هذا الوقت **﴿فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب انى لما أنزلت إلى من خير فقيرٌ﴾**[3] فانحلت مشاكله كلها على الفور.

كان خائفا فوجد الأمن.. كان جائعا فوجد الطعام.

كان غريبا فوجد الأنس.. كان عاطلا فوجد العمـل.

كان باحثا عن المأوى فوجد السكن.. كان شابا أعزب فوجد الزوجة.

كان مسافرا فوجد الاستقرار.

فانظر كيف كان العمل بسيطا والرصيد عظيما عند الله وجده فى الحساب على الفور حين احتاج إليه. ولما التقم الحوت يونس احتوته الظلمات الثلاث بطن الحوت وسواد الليل وركام الأمواج فى البحر أدركته رحمة الله ونفعه الرصيد القديم فى المصرف الأعلى فوجده على الفور.

﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِين. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[4] فانظر كيف كان العمل بسيطا والرصيد عظيما عند الله.

وقد ابتلى أيوب فى ماله وأولاده وصحته وزوجته وظل على هذا الحال أمدا طويلا صابرا حتى ضرب بصبره المثل على فقد كل هذه النعم ونفعه رصيده من الصبر عند الله فأعاد إليه مثل هذه النعم: **﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾**[5]. **﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾**[6].

وليس الأمر قاصرا على الرجال فهاجر أم إسماعيل حين أطاعت أمر ربها

(1) حديث ١١٩ سابق.
(2) حديث ١٢٧ سابق.
(3) سورة القصص آية ٢٤.
(4) سورة الصافات آية ١٤٣.
(5) سورة ص آية ٤٤.
(6) سورة ص ٤٣.

وليس الأمر قاصرا على الرجال فهاجر أم إسماعيل حين أطاعت أمر ربها وبقيت مع ولدها وفلذة كبدها الصغير الرضيع فى البلد القفر بين الجبال والصخور وليس فيه ماء ولا زرع ولاضرع ولا أنيس ولا جليس ولم تتشبث بأذيال زوجها إبراهيم وهو يتركها ولم تجزع وتصرخ وتولول لأن زوجها تركها مع ابنهما الرضيع فريسة للرياح العاصفة والصخور الصماء والجبال العالية والوحشة القاتلة والشمس المحرقة.

استغاثت بالله فأغاثها نبع بئر زمزم فى هذا الوادى القفر وكأنه نهر عظيم يسير تحت الأرض بين الجنادل والصخور بسبب دعوة المضطرة هاجر أم إسماعيل فكان سبب حياة سكان المكان والوفود من الحجاج والعمار والزوار والتجار ألوف الأعوام وأجاب دعوة الوالد: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[1]. راجع مقالى الحج هبة زمزم/ ٢.

كان الرصيد عظيما وجده الوالد والوالدة فى حسابهما على الفور وقت الشدة وعند الحاجة إليه.

وكذلك الثلاثة الذين كانوا فى سفر فجن عليهم الليل فأووا إلى غار فى الجبل ولكن الرياح أتت بما لم تشته السفن و وقعت صخرة من أعلا الجبل سدت فم الغار وبذلك تعرضوا للموت جوعا وعطشا ورعبا واستدعى كل واحد رصيده عند الله كان أولهما بارا بوالديه لدرجة أنه يقدمهما عند تناول الطعام وشرب اللبن على أولاده ولما تأخر مرة وجدهما نائمين فأبى أن يزعجهما وأن يقلق راحتهما وظل سهران على هذا الحال حتى طلع الفجر وكان هذا على حساب راحته وجوع أولاده. واستيقظ ضمير الثانى فى لحظة التسليم من المرأة التى يهواها وراودها عن نفسها مرارا وتكرارا فلم تسلم إلا بعد أزمة طاحنة فذكرته بالله فتذكر فى اللحظة الحاسمة وتغلب على قوة الشهوة وأعطاها المال مائة وعشرين دينارا دون مقابل...

وكان الثالث حافظا لأجر العامل الغائب الذى استثمره فلما جاء بعد الغيبة

---

(١) سورة إبراهيم آية: ٣٧.

(٢) نشر فى مجلة الهدى النبوى شوال ١٤١٧ هـ.

الطويلة أخذ المال المستثمر كله وكان شيئا عظيما ومضى لحاله. .[1].

فوجد الرصيد على الفور وانفرجت الصخرة وخرجوا يمشون.

وحديث الرجل العطشان الذى أشرف على الهلاك من شدة العطش فوجد بئرا شرب منها ثم صادف بعد نجاته كلبا فى نفس التجربة فأخذته الشفقة على الحيوان الأعجم. . . وهو فى صحراء جرداء لا يراه إنسان ولا يعرفه أحد وأحب للكلب ما يحب لنفسه وسقاه بخفه أمسكه بفيه ويداه مشغولتان بصعود درجات وسلالم البئر[2].

وفى رواية للبخارى أن الساقية كانت بغيا من بغايا بنى إسرائيل فغفر الله لها.

فانظر كيف كان العمل بسيطا والرصيد عظيما عند الله والماديون لا يعترفون بالغيب الماضى عندهم رجعية والمستقبل [ولو كان موصوفا فى كتاب مقدس محفوظ من التحريف والتغيير والتبديل] كهانة لا مكان لها فى دنياهم فهم لا يعترفون بتفكير المؤمنين ووثوقهم بأن ما عند الله أقرب إليهم مما فى أيديهم وجيوبهم وحوافظهم وخزائنهم وأرصدتهم فى المصارف. . .

هذه كلها أسباب تذهب هدرا فى أى لحظة وتضيع سدى فى أى برهة فقد يسرق المال أو يغتصب أو ينهب أو يحرق أو يصادر وتؤممه الدولة وتفرض عليه الحراسة.

المعول عندهم على العلم وحده وعلى التخطيط السليم ولكن العلم سلاح ذو حدين يستخدم فى الخير والشر معا. . . شقيت البشرية بالعلم زمنا طويلا فى الحروب العالمية والمحلية والأسلحة الفتاكة والقنابل الذرية والهيدروجينية والصواريخ قريبة وبعيدة المدى وعابرة القارات والتأميم والمصادرات والحراسات. . .

ومن حسن الحظ أن الإسلام يعترف بالعلم أيضا فقد أمر الله فى أول كلمة من الوحى بالقراءة وأقسم بعد ذلك بالقلم وما يسطرون.

وجعل العقل والاجتهاد والقياس من أسس الفقه والتشريع فى الإسلام فلابد

(١) حديث ١٢ فى رياض الصالحين للنووى.

(٢) حديث ٦٣

من الإيمان والعلم معا ليستطيع الإنسان أن يمشى على رجليه معا وأن يعيش بعقل سليم وجسم سليم فيتم التوفيق بين الجسم والروح.

﴿ وَالْعَصْرِ. إنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[1].

*****

(١) سورة العصر ثلاث آيات.

تجربة روحية

قدمت جهدى وإخلاصى ورثائى العميق لزميل فى الطلب يتقدمنى فى الصفوف العليا بعدة سنين ابتلى بحياة الظلام المؤبد فكنت عصاه إذا سعى وعينه إذا قرأ والمودع والمستقبل إذا سافر أو قدم والمشير عليه بالنصيحة إذا طلب الرأى وخادمه إذا باع وإذا اشترى ووكيله إذا قضى أو اقتضى وكاتبه إذا أراد أن يتصل بأهله وبأصدقائه ويبعث إليهم على البعد التحية والشوق والمحبة والسلام وصبرت على صحبته أربع سنوات احتسابا فلم يكن يسهل على المهمة بل كان العنت فيه طبعا لازما غير أن بادرة الليل تذهبها صحوة النهار وخطأ النهار تمحوه مغفرة الليل فى القلب الأبيض الراثى لبلواه ولم أظفر بثنائه وشكره إلا بعد زمن طويل بعد أن احتلفت عليه الزمالات والصداقات والأحوال فأكبر من أمرى ما كان صغيرا وعظم من بلائى ما كان حقيرا وأصبحت عنده بعد الفراق كالنور بعد الظلام.

ولا أستطيع إحصاء ما قدمت وعد ما أسديت فإن ذلك معجز للذاكرة الخوانة التى يختلف عليها الليل والنهار فتنسى.

وما لى أعنى نفسى بالعد والإحصاء والذكر ومن قدمت له الخير لا يفوته كبير ولا صغير من خوالج النفوس وخطرات القلوب وأعمال الجوارح.

استغنيت بعلمه وحفظه وكتابه وفوضت إليه الأمر لمن تناهت لديه الكفاية والحفظ ولم أتشبث بوسائل العجزة القاصرين فلما صرفت همى للرزق وأصبحت طالبا وموظفا معا اقتضانى هم الرزق إن أغيب عن حضور الحصص والمدرسين الأساتذة ومذاكرة الطلاب وأكون حيث أعمل فخفت الضياع فى ميدان الطلب وتيقنت الغرق لعلمى بغلبة الجحود وسيطرة الأنانية وقسوة السباق فى المعترك وإن العناية بالغير مشغلة عن الفوز والتألق بل ربما كانت رؤية السباحين لصرعى السباق أبعث على السرور وأدعى إلى المتعة وتقطعت بى الأسباب وتداركتنى رحمة الله ولولاها لنبذت بالعراء وأنا مذموم طفا الخير الذى قدمته وألقيته فى البحر فانتشلنى وامتدت إلى يد صديق عزيز بالإسعاف جزاه الله خيرا على معروفه وإحسانه وأسبغ عليه النعم ظاهرة وباطنة فقد خدمنى خمس سنوات كنت عالة عليه فى

الدراسة وكلا على زميلى الحاضر لم ينقض لى عهدا ولم يخلف لى وعدا ولم يتباطأ فى خدمته . .

وحاجة من عاش لا تنقضى. إذا اقتضى الأمر حضورى أخبرنى بالبريد حتى أحضر على جناح السرعة فأشترى من المذكرات ما فاتنى وأنقل من كراسته المحاضرات وأعرف المقررات.

وكان مع ذلك من هواة الأدب ومكتبته التى ورث معظم كتبها وجدد القليل كانت معينا لا ينضب أيضا أستعير ما شئت من الكتب وكنت أرى أنه الحافظ لكرم الأسرة المشهور والفاتح للبيت أمام الوافدين من القرية والأصحاب يجد كل نازل فى البيت أهلا خيرا من أهله وقد اشتهر صديقى بالخدمة العامة فكانت يده هى العليا على كل من وصلته به رحم أو صحبة أو زمالة على الرغم من العناء والمشقة التى تنقض ظهره وكان يتحسى مرار الإخوان والأصحاب ويسقيهم عذبه وتصدر هذه الصفات عن طبع صاف خالية من التكلف والزهو والمن والغرور.

وهل يشق على المصباح أن يبعث النور وعلى الزهرة أن تنفحنا بريحها العطر وكانت هذه التجربة الروحية دليلا على أن الخير لا يضيع وأن الله ادخره لى فى وقت الشدة ونفعنى به فى وقت الحاجة إليه وقد تقطعت الأسباب بكثير من زملائى الذين زاوجوا بين الطلب والوظيفة فلم يستطيعوا التوفيق بينهما . .

كان معه من زملاء الفرقة القدامى من يعينه ولكنه تخلف عنه بالرسوب والزملاء الجدد لا يعرف منهم أحدا ورحم الله الشاعر الذى قال:

ورب أخ قـــص العــــرق فيه سلو عن أخيك من الولاد

وأتمنى على الله أن يخلد صحبتنا وأن يبعد عنها ما يكدر الصفو.

ولا يزيدنى كر الغداة ومر العيش إلا إعجابا بخلقه وأهون الجزاء أن أعترف بالفضل وأثنى على أهله ولو أن هذه بتلك لزاد فضل الثانية على الأولى ورجحت كفتها وفضل الله واسع لا يحيط به محيط ولا يحصره حاسب.

عجل لنا شيئا من الجزاء فى الدنيا وبقى الحظ الأكبر نستوفيه فى دار الجزاء إن شاء أسأله أن يجزى صاحبى كما جزانى ولله الآخرة والأولى.

الدعوة بالقدوة

قرأت ما كتبه الدكتور صلاح الدين أرقه دان مدير تحرير مجلة الوعى الإسلامى الكويتية فى عدد شوال ١٤١٥ هـ مارس ١٩٩٥م من تأثره الشديد مع جميع الحاضرين لندوة فى إحدى ضواحى باريس عاصمة فرنسا سنة ١٩٨٥ بأم فرنسية تشجع ولدها على اعتناق الإسلام لأنها رأت إكرام الشباب المسلم لأمهاتهم وآبائهم فى سن الشيخوخة ولو كانوا غير مسلمين تنفيذا للآية: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[1]. وأمثالها.

والأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة كثيرة فى هذا الموضوع لدرجة أنه باب فى كتب الحديث والأخلاق وصلت إلى مستوى التواتر فى المعنى.. وبلغ من قيمة الإحسان إلى الوالدين أن الله ذكره بعد التوحيد مباشرة وقرن الشكران معا لله وللوالدين وهذا ما يجعل كل أم وإن بقيت على دينها تطمئن على حياتها ومستقبلها فى ظل الإسلام بدلا من حياتها منبوذة مع أمثالها فى ملجأ من ملاجئ المسنين وأزيد على ذلك واقعة أخرى مع الفرنسيين أيضا ولكنها تتعلق فى هذه المرة بأحد كبرائهم وزعمائهم وأعلامهم ومفكريهم... كيف التقى جارودى بالإسلام كان معتقلا فى جلفة جنوب الجزائر مع خمسمائة من رفاقه بسبب مقاومة هتلر ضد حكومة فيشى التى سلمت للألمان، وحول معسكر الاعتقال جنود مسلحون بالبنادق الرشاشة مسلمون جزائريون، وقام المعتقلون بمظاهرة داخل المعسكر فأمر القائد الفرنسى يوم ٤/٣/١٩٤١م الجنود بإطلاق النار فى المليان وفوجئ جارودى مع رفاقه الثوار الأسرى والقائد بعصيان جماعى من الجنود لأمر ضرب النار وعرف جارودى السبب وهو أن شرف الجندى المسلم يمنعه من إطلاق النار على إنسان أعزل فكان مدينا بحياته لهؤلاء الجنود المجهولين بالنسبة له وظلوا كذلك إلى الأبد ولكن دينهم هو المعلوم وهو الظاهر فى الساحة فقد نفذوا قاعدة من قواعده «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق» كما ورد فى الحديث التالى:

---

(١) سورة لقمان آية ١٥.

عن ابن عمر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «**على المرء السمع والطاعة فيما أحب ذكره ـ إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**»[1].

وكان هذا الدرس العملى والدعوة بالقدوة خيرا من دراسة نظرية لمدة عشر سنوات فى السربون[2] ويعطى هذا الدرس أن الإسلام دين الرحمة للعالمين وليس للمسلمين فقط كما جاء فى الآية: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾[3] وكما يعطى المثل الأول المذكور من قبل [تعددت الأسباب والرحمة واحدة] ومن المعانى أيضا أن القدوة مطلوبة من كل مسلم عامل بالإسلام أيا كان موقعه كالفلاح والعامل والصانع والتاجر والجندى والطبيب والغنى والفقير والقاضى العادل والموظف النزيه ليجتهد كل مسلم أن يكون عنوانا على الإسلام.

وليست القدوة خاصة بالأئمة والخطباء والوعاظ والمدرسين والمرشدين والمحاضرين والمفتين والشيوخ ـ والأمثلة التاريخية نسبيه التأثير فى الأجيال المعاصرة الحاضرة والمقبلة خصوصا إذا كانت كافرة تأخذ حقنا سامة وترى صوراً مشوهة. هذه معاملة الأسرى فى الإسلام وهم من الأصناف التى وصى القرآن بإكرامهم والإحسان إليهم قبل منظمة الصليب الدولية بألف وأربعمائة عام تقريبا ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا**﴾[4].

فليقارن العالم المتحضر المتمدن بين هذه المعاملة الكريمة التى تظهر الحرب وسيلة لا غاية فى حد ذاتها وبين معاملة الغرب لأسرى ونساء وأطفال وشيوخ وجرحى وصرعى ومرضى مسلمى البوسنة والهرسك.

---

(١) حديث ٦٦٣ رياض الصالحين للنووى.

(٢) الفيلسوف المسلم رجاء جارودى ص٢٨ تأليف أبو المجد أحمد حرك ط ١٩٨٥م.

(٣) سورة الأنبياء آية ١٠٧.

(٤) سورة الإنسان آية ٨، ٩.

الخط الثابت

اقتضت المقارنة بين الحضارات ذكر ما جاء به الإسلام وفعله المسلمون فى الحروب التى حدثت بينهم وبين أعدائهم وكان الهدف، منها تأمين نشر الدعوة حتى يعتنق الدين من أراد عن طواعية واختيار بالرضا التام دون شائبة إكراه أو تحت تأثير أى ضغط وهذا بعض ما فعله الغرب المسيحى حين استعمر الشعوب المسلمة فى الشرق. . .

اتجهت الدول الأوروبية الغربية بعد أن أصبح لها كيان تتطلع به إلى بسط سيادتها وفرض إرادتها على العالم فكانت وسيلتها فى ذلك تحطيم كل قوة تظهر فى منطقة الشرق الأوسط فهو مركز مهم وموقع فريد وسط العالم القديم بين القارات الثلاث آسيا وإفريقيا وأوربا وبه ثروات كبيرة وكنوز عظيمة منها خامات الصناعة كالقطن والبترول والمعادن الأخرى وأراضى صالحة للزراعة تجرى فوقها الأنهار وتحتها المياه الجوفية التى تظهر على شكل آبار أو عيون أو نافورات أو سواقى وفيها شواطئ البحار والآثار والجو المعتدل والأيدى العاملة الرخيصة وكل هذا يؤخذ بأبخس الأثمان المفروض على الشعوب النامية ليعود - بعد الصنعة إلى السوق بأغلى الأسعار ويستمر هذا الانخفاض فى الصادرات والارتفاع فى الواردات دون أن يقف عند حد وقد أشرت إلى شىء من هذا فى مقالى نصيحة[1]. ثم أضيف إلى ذلك البترول وقود المحركات الميكانيكية.

والناظر إلى هذا الخط يجده ثابتا بوضوح كان منه تحطيم تركيا بالمؤمرات والدسائس والفتن ، والأنقلابات والقوميات حتى تم للدول الأوربيية ما أرادت بعد الحروب الطويلة المتصلة لدرجة أنهم سموها الرجل المريض عملوا على تقسيم تركته وأخذ ميراثه وهو حى لم يمت بعد فى معاهدة سايكسى بيكو لتوزيع تركته بين انجترا وفرنسا سنة ١٩١٦.

وفازوا فى مسعاهم على المدى الطويل.

---

(١) نشر فى كتابى حديقة لأقطار الإيمانية.

وكانت التصفية النهائية على يد أتاتورك [الذئب الأغبر] مصطفى كمال معبود الجماهير العلمانية فى الشرق بعد أن نفض يديه تماما من الإسلام والعروبة ثم نجد من هذا الخط تحطيم محمد على حين ظهرت قوته فى مصر وتمرد على سيده سلطان تركيا بعد أن كان عونا له فى حروبه وفى خدمته.. فهم يسلطون خصومهم على بعض ثم يقضون فى النهاية على الاثنين معا بمجهود قليل... وسمحوا لمحمد على بعد أن حطموه بحكم مصر وراثية فى ذريته من بعده، ولم يقنعوا بما حققوا من مكاسب بل ازدادت الأطماع عن حدها واحتلوها احتلالا مباشرا سنة ١٨٨٢م بعد أن تم حفر قناة السويس التى تصل الشرق بالغرب بأيدى وسواعد وعرق ودماء وأموال المصريين وبذلك يضعون أيديهم على طريق التجارة العالمى وعلى الدجاجة التى تبيض كل يوم بيضة من الذهب وجن جنونهم وثارت ثائرتهم حين استعجل جمال عبد الناصر أجل الامتياز وأمم القناة سنة ١٩٥٦ فاحتلوها احتلالا مباشرا لأجل قصير وانتفعت مصر باختلاف الدول المحتلة إنجلترا وفرنسا وإسرائيل مع القطبين العظيمين فى العالم أمريكا وروسيا فتم الانسحاب وظهر هذا الخط فتعرضت مصر لحروب دامية فى سنوات قليلة قصمت ظهرها - ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٣، ١٩٦٧، ١٩٧٣م وبين الحربين الأخيرتين كانت حرب الاستنزاف واستخدام الحليفة المدلله والخنجر المسموم الموضوع فى قلب العرب فلسطين فهى الوحيدة التى سمحوا لها بالقوة فى المنطقة ودعموها بأحدث أنواع الأسلحة من البندقية إلى الصواريخ الموجهة والقنابل الذرية والنووية وعوضوها عن الخسائر وحموا ظهرها فى مجلس الأمن وهيئة الأمم وأصبحت قرارات الإدانة حتى لو صدرت حبراً على ورق لا يجد السبيل إلى التنفيذ ولعبوا هذه اللعبة مع مجاهدى أفغانستان ساعدوهم فى حرب الشيوعية حتى انتصروا ثم وقعوا فى بعض وهم يخربون بيوتهم بأيديهم هذه المرة لا بأيدى الأعداء نتيجة للصراع على السلطة والمركز الأول فى الدولة الجديدة والصعود إلى قمة الهرم أولى لهم أن ينقلوا الجهاد إلى البوسنة والهرسك ونجده الشعب المسلم الصغير الضعيف الأعزل الذى يعامل بوحشية لا تعرف الرحمة ولا حقوق الإنسان ولا مبادئ العدالة وإن ادعى جلادوه الحضارة والمدنية والرقى والإحسان إلى الحيوان والرفق بالكلاب والقطط فهى جزيرة صغيرة مسلمة فى وسط محيط صليبى.. وحمل وديع بين ذئاب

وضياع ووحوش كاسره كشفت عن أطماعها وأنيابها وخلعت برقع الرياء والحياء.
ولما ظهرت إيران فى الساحة بوجه أبيض ترفع راية إسلامية ونبذت عهد التبعية لأمريكا حين كانت تحت حكم الشاة سلطت عليها السفيه صدام فظل فى حرب معها لمدة ثمان سنين من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٨م انهكت منها قوة الطرفين وكسبت منهما مصانع السلاح والذخيرة المكدسة فى المخازن والجاهزة تحت الطلب... والمصارف والسماسرة مبالغ طائلة فكلاهما دولة غنية تملك رصيدا عظيما واحتياطيا ضخما من الذهب الأسود فكانت أمريكا تمد الطرفين بالسلاح ولا تبالى بالظالم والمظلوم والمعتدى والمعتدى عليه فكلاهما عدو لها تريد أن تقضى عليه بيد الآخر... ثم تأتى مكاسب تعمير الخراب الذى دمرته الحرب بواسطة الشركات الأجنبية التى تفرض شروطها ومكاسبها وأموالها وعمالها وخبراءها...

ثم تجددت اللعبة بأيد عربية أخرى...

أغرت صدام بالتهام الجارة الغنية الكويت ليحل مشاكله ويسد ديونه حتى ابتلع الطعم الحافل بالسم وركب رأسه ولم يسمع كلام الناصحين فحانت الفرصة لتحطيم قوة العراق تماما كما فعلت مع مصر من قبل. وزعم أنه يحارب اسرائيل فى حين أنه لم يحرك ساكنا حين اعتدت اسرائيل على مفاعله الذرى وحطمته وكان هذا سببا كافيا للحرب.. وتركوه على حكم العراق [رغم بلاويه] ليكون خيال حقول البترول...

وخسر الجواد الذى راهن عليه فى ابتلاع الكويت وطمعه فى الاستيلاء على بترول المنطقة كلها ليتحكم فى العالم كيف يشاء ورد الله كيده فى نحره فلم يملك بترول العراق وفرض عليه الحصار برا وبحرا وجوا فلم يستطع أن يبيع بتروله فى مقابل الغذاء والدواء إلا بعد سنوات عانى فيها الأمرين وعانى الشعب العراقى معه الهوان والذل والجوع والقهر والمرض.

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾[1].

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند.

---

(١) سورة هود آية ١١٧.

﴿ وكَذَلكَ نُوَلّي بعْض الظَّالمين بعْضًا بما كانُوا يكْسبُون﴾ [1]

وهذا الخط ثابت سواء كانت القوة الجديدة علمانية أم دينية محمد على وصدام من الفريق الأول وإيران من الفريق الثانى وسواء تولت الزعامة انجلترا أم فرنسا أم الوريثة لاستعمارهما فى العالم. . . . أمريكا وهم يتعاونون فيما بينهم ولا يوجهون الضربة القاصمة إلا فى مجموعة من الحلفاء ولا تقوم به دولة منفردة.

ولم يستثن إلا فترة ظهور روسيا كقطب معارض ومنافس لأمريكا على زعامة العالم بعد الحرب العالمية الثانية فلما تفكك الاتحاد السوفيتى بقدرة القادر وحكم القاهر فوق عباده دون حرب ولا ضرب سلمت روسيا لأمريكا بالزعامة دون معارض لأن من يمد يده لا يمد لسانه.

والله يقول الحق وهى يهدى السبيل.

(١) سورة الأنعام آية: ١٢٩

عربات قطار الاستعمار

كان المسلمون الأوائل فى فتوحاتهم الكبرى التى شملت قدرا عظيما ومساحة واسعة من العالم القديم يكتفون من الشعوب المغلوبة فى الحرب أمامهم بشروط ثلاثة: (١) القتال وقد انهزموا فلا محل له...

(٢) والإسلام وهم لا يريدون اعتناقه بالإكراه وتحت ضغط السلاح ويتفق هذا مع وجهة نظر الإسلام: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾[١] وغيرها من الآيات التى تحمل المعنى فلم يبق إلا الجزية الشرط الثالث ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[٢].

وهى متفاوتة للغنى ٤٨ ÷ ١٢ = ٤ دراهم كل شهر.

وللمتوسط ٢٤ ÷ ١٢= ٢ دراهم كل شهر.

وللفقير ١٢÷ ١٢= ١ درهم واحد من كل شهر.

ويجوز أن يستبدل المال بالسلع والعروض والدواب والثياب إلخ ويعفى منها الشيوخ الكبار والأطفال الصغار والرهبان فى الأديار والقسس فى الكنائس والمجانين وذوى العاهات فهؤلاء يأخذون معاشات شهرية فى نظير الجزية التى دفعوها فى شبابهم فلا يأكلونهم لحما ويرمونهم عظما ويتركونهم للتسول طبقت عليهم قاعدة الغنم بالغرم...

والمسلمون بدورهم يدفعون الزكاة [كحد أدنى] والصدقات والمكوس أو الضرائب إن اقتضى الأمر لقيام الدولة بوظائفها فى الإنفاق على الجيش لحماية الدولة من الأعداء خارج حدودها والشرطة لصيانة الأمن الداخلى وإقامة العدل بين الناس... والتعليم والصحة إلخ.

وتلتزم الدولة الإسلامية بجيوشها المنصورة الدفاع عن الشعوب المغلوبة...

«وإنما وضعت عليهم الجزية وصالحو عليها على أن يقروا ببلدهم ويقاتل عنهم

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٦.
(٢) سورة التوبة آية ٢٩.

عدوهم»[1]. وفى معاهدة الرسول ﷺ لنصارى نجران لم يلزمهم بالتجنيد الإجبارى فى جيش المسلمين وإن كان سيتولى حمايتهم.

وقد اضطر أبو عبيدة بن الجراح للتراجع بجيشه عن حمص فأعاد لأهلها ما أخذه من الجزية منهم لأنه عجز عن حمايتهم»[2].

وفى فقه السنة أوجب الله الجزية للمسلمين نظير قيامهم بالدفاع عن الذميين وحمايتهم فى البلاد الإسلامية التى يقيمون فيها»[3].

فلا يلزمونها بحروب لا ناقة فيها ولا جمل.

وهذا فرق كبير بين الإسلام الذى جاء رحمة للعالمين سواء فى ذلك المسلم والكافر وبين الاستعمار الحديث الذى يدعى التمدن والتحضر والتفوق والرقى والإنسانية وكلها أسماء فارغة من المضمون خالية من المعنى؟ واقتعة كاذبة كشفها الله فى اختبارات كثيرة: ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾[4].

ومهما يكن عند امرئ من خليقة — وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ثوب الرياء يشف عما تحته — فإذا التحفت به فإنك عار

وإذا كان هذا الامتحان بين المؤمنين فهو بين الكافرين من باب أولى...

ومن هذه الامتحانات ظهور السفاح هتلر وما تسبب فيه من أهوال للبشرية وهو ينتسب للحضارة الغربية... ومنها ظهور السفاح ستالين وما تسبب فيه من أهوال للمسلمين وغيرهم من شعوب الاتحاد السوفيتى ودول الكتلة الشرقية والستار الحديدى والتوابع البعيدة عن الكتلة - والستار قبل السقوط على رأس آخر خلفائه فى الاتحاد ميخائيل جورباتشوف... ومنها حرب الصرب والجبل الأسود مع البوسنة والهرسك وما زعمته القوات الدولية من حماية مدن وأماكن جمعوا الأسلحة من أهلها للمسلمين ثم سلموها للصرب منزوعة السلاح دون أن يحركوا ساكنا وتركوا الظالم يعبث فى الأرض فسادا دون أن يردعوه وفى أيديهم القوة

(1) موطأ مالك ص٢٨٠ ط ١٩٥١م القاهرة.
(2) الخراج ص١٧٥ لأبى يوسف القاضى.
(3) فقه السنة ٦٧/٣ - السيد سابق.
(4) سورة آل عمران آية ١٧٩.

اللازمة لردعه كأنه أمر دبر بليل . . .

المهم أن الاستعمار اضطر الشعوب المغلوبة على أمرها المهزومة فى الحرب أمامه أن تخوض حروبا لا مصلحة لها فى دخولها ولا ناقة لها فيها ولا جمل مع الدول المستعمرة ضد أعدائها وعلى سبيل المثال فقد دخلت مصر والهند واستراليا الحرب العالمية الأولى إلى جانب الانجليز فأهلكت زهرة شبابها ونهبت أموالها واستنفدت ثرواتها وعرضتها للخراب فى مقابل الوعود المبذولة مرارا وتكرارا من باب الكيد والمكر والاستدراج . . بالاستقلال التام بعد النصر فى الحرب فلم تف لها بأى وعد بعد أن تحقق الأمل وعلت الراية وتم النصر وحق الشكر وآن أوان الوفاء بالوعود والعهود: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولا ﴾[1]، ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾[2].

ومن أجل هذا قامت ثورات وكانت نضحيات وظهرت زعامات وتأسست أحزاب منها حزب الوفد بزعامة المرحوم سعد زغلول وأصحابه وخلفائه فى مصر .

وأعاد التاريخ نفسه كما يقال فى الحرب العالمية الثانية فسارت عربات قطار الاستعمار خلف القاطرة أو الجرار مسلوبة الإرادة مشلولة الفكر على أمل عظيم عند التوابع هين وتافه وأوهى من بيت العنكبوت عند المستعمرين المتبوعين وعادت فى هذا السبيل إخوانها فى الدين واشقاءها فى النسب وتفرقت كلمتها بين آمل خير فى المستقبل القريب أو البعيد وبين يائس خائف من خلف الوعد والغدر والخيانة فى المستقبل القريب والبعيد وهذا ما حدث مع الأسف الشديد وهو معلوم من التاريخ بالضرورة .

للعام والخاص والجاهل والعالم . . لم يصدق الاستعمار [وهو كذوب] مع الشعوب الكثيرة التى ساعدته فى حروبه التى أهلكت الحرث والنسل إلا مرة واحدة كانت مع الأسف الشديد لليهود فى وعد بلفور حين وعدهم بوطن قومى يعيشون فيه وكان هذا على حساب العرب المسلمين فى فلسطين أعطى من لا يملك من لا يستحق .

(1) سورة الإسراء آية ٣٤.

(2) سورة الأعراف آية ١٠٢ .

ضربة قاصمة وطعنة نجلاء فى قلب العرب المسلمين أجمعين اعتمد عليها الاستعمار قبل أن يحمل عصاه على كاهلة ويرحل كأنه أمر دبر بليل.

خدعوك فقالوا

الحضارة الغربية مثل يحتذى

لما انهار الاتحاد السوفيتى وكان فى زمن من الأزمان ثانى اثنين وإحدى القوتين فى العالم وارتخت القبضة الحديدية للقياصرة الحمر وانتثرت دول الستار الحديدى وتفتت الكتلة الشرقية وتفكك حلف وارسو بفعل فاعل وقدرة قادر وهيمنة قاهر هو الله تعالىٰ فقد كانوا ملاحدة لا يؤمنون بوجوده ولا يعترفون بذاته ولا يدينون أى دين بل إنهم جعلوا إلحادهم دينا فرضوه بالحديد والنار على الشعوب التى خضعت لسلطانهم ووقعت فريسة لحكمهم ومنها المسيحى والمسلم وصدروا هذا الإلحاد بواسطة الأحزاب التى اعتنقت الشيوعية والاشتراكية طوعا أوكرها فى مختلف أرجاء الأرض، وكان هذا السقوط نعمة عظيمة من الله على أمريكا وحلفائها وكفاها القتال فلم تحارب فيها بجندى واحد ولم تطلق طائرة من عقالها فى أى مطار من مطاراتها ولو كانت حاملة طائرات فى عرض البحر من أقدم طراز أو من أحدث طراز لتلقى بحمولتها من القنابل المعتادة أو الذرية كما فعلت مع ألمانيا واليابان فى الحرب العالمية الثانية، ولم تقل درجة الاستعداد القصوى فى أى قاعدة من قواعدها المنتشرة فى العالم وقد وقفت على قمة المواجهة معه فى بعض الازمات حين كان قوى الشكيمة مرهوب الجانب مسموع الكلمة عنده القنابل الذرية يتوعد ويهدد بها فأصبح يستجدى رغيف الخبز ويبيع بنات الهوى لممارسة الرذيلة فى السوق السوداء لمن يدفع الثمن الأعلى والسعر الأغلى ويملك العملة الصعبة.

وقد لقيت جيوش أمريكا الأهوال فى بلاد فقيرة مثل كوريا وفيتنام تمشى حفاة وتركب الأفيال...

وكان أولى لها حماية العدل ورعاية المساواة بين الناس ولكن حدث العكس مع الأسف الشديد...

وافق النظام العالمى الجديد وعلى رأسه أمريكا وتحت جناحيها الحلفاء الأربعة انجلترا وفرنسا وألمانيا واليابان على استغلال الدول المسيحية عن الاتحاد السوفيتى... دول البلطيق الثلاث الواقعة على البحر الأسود لتوانيا ولا تقيا واستونيا ولم تثر فى وجهها أى مشكلة... شجعته وباركته وأيدته وجعلته حلالاً فى الشرعية الدولية المزعومة وحقا مكتسباً فلما حاولت الدول المسلمة أن تحذو حذوها وأن تضع النير الروسى عن عنقها وأن تشرب من نفس الكأس أصبح ذلك الاستقلال تحت وطأة العصبية حراماً وهم يسمونها الشرعية الدولية كما حدث لدولة شيشان المسلمة التى تحاربها روسيا لتعيدها إلى حظيرة الاحتلال كتب عليها أن تخوض حربا ضاربة طاحنة تأتى على الأخضر واليابس والقائم والحصيد.

وتصيب الجندى والمدنى حتى لو كانت غير داخلة فى الاتحاد السوفيتى وإنما كانت ضمن دائرة النفوذ فى نطاق الكتلة الشرقية أو عضوا فى حلف وارسو وقد كان الكل اعداء فماذا جعلهم يغيرون المواقف ويهتمون بالمصالح ثم شعب البوسنة والهرسك يحارب الصرب والجيل الأسود منذ أربع سنوات ليكون حرا طليقا لا يخضع لأحد عرضوه للفناء والإبادة تحت سمع العالم وبصره مجلس الأمن وهيئة الأمم وحلف وارسو وحلف الأطلنطى والاتحاد الأوربى ومجلس الكنائس العالمى والجامعة العربية والمؤتمر الإسلامى فكلها هيئات ومنظمات ترعى حقوق الإنسان..

هم رغم ذلك كله تحت وطأة الحصار برا وبحرا وجوا يمنعون عنهم الماء والطعام والوقود والسلاح الذى يدافعون به عن أنفسهم والدواء الذى يعالجون به مرضاهم ولو استطاعوا أن يمنعوا الهواء عنهم لمنعوه.

وقيل أن الإنسان الغربى فى أوربا وأمريكا وآسيا واستراليا قد تحضر وتمدن وأصبحت لديه العدالة والحرية والمساواة وهو حريص على حقوق الإنسان خصوصا العمال والأطفال والصبيان والمرضى والنساء والكهول وعلى حماية الأقليات وتأمين المدنيين وتجنبهم ويلات الحرب وتحرير الأسرى وأراد الله أن يكشف المستور وأن يظهر المخبوء فى الصدور وأن يثبت أن هذه ادعاءات كاذبة كلها زيف وبهتان حين تتعرض لأى امتحان وأن الروح الصليبية التى ظهرت ضد مسلمى الأندلس وعرب

فلسطين لا تزال مشتعلة الأوار متوهجة بكل بشاعتها وقسوتها وغلظتها فى صدور الأحفاد من القواد والضباط والجنود سكان أوربا ودول البلقان وعلى رأسهم الصرب والجبل الأسود فقد ارتكبوا من جرائم الحرب فى حق المدنيين ما تشيب لهوله الولدان وما يجلل وجه الحضارة الغربية بالسواد وما يلطخ يديها بدماء الأبرياء من الشيوخ والنساء والأطفال ولا ينكر أحد أن الحضارة الغربية قد تفوقت فى العلم المادى وبنت فى صرحه لبنات بل طبقات ولكن على أحجار أساس وضعها المصريون القدماء والهنود والصين والمسلمون فى العصور الوسطى وأخيرا وضعت الحضارة الغربية الحديثة العلم المادى فى خدمة الشر والعدوان والإبادة والوحشية فهى لا تؤمن بالتعايش السلمى بين الأمم ولكن تؤمن أن البقاء للأقوى وما أكثر الشعوب التى شقيت حتى فنيت فى سبيل سعادتها وأقرب الأمثلة إلى ذلك الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليون. . .

مسلمى الأندلس فى أسبانيا . . الزنوج والملونون فى أمريكا وجنوب أفريقيا تحت حكم البيض.

مسلمو البوسنة والهرسك فى يوغسلافيا.

وعرب فلسطين ولبنان، وتطير بجناح واحد هو العلم دون الجناح الثانى وهو الأخلاق فهل تستمر فى الطيران طويلا على هذا الحال وتعتمد على رجل صحيحة وأخرى مشلولة فهل تبقى قادرة على المشى فى السفر القريب أو البعيد.

﴿أرأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾(١) ومن ذلك خضوع قوانينهم للأعراف الجارية والتقاليد السائدة فى بلادها فتباح الخمر مثلا مع أنها أم الخبائث وتحرم المخدرات ويباح الزنا بالرضى وغير ذلك من ألوان الفساد الأخلاقى فيجنى كل ذلك على الأسرة وينتشر مرض فقد المناعه بين السكان ويباح الربا ولعب الميسر فينتشر الحقد الأسود المدمر بين الطبقات.

ويباح نهب ثروات الدول النامية أو شعوب العالم الثالث لأنها غير ماهرة فى التعدين والصناعة والنقل والتسويق والتخزين أو الحفظ والتجارة والاقتصاد.

---

(١) سورة الفرقان آية: ٤٣.

خدعوك فقالوا

الشرعية الدولية

أنشئت هيئة الأمم ومجلس الأمن لتحقيق العدل بين الدول القوية والضعيفة والالتزام بالمساواة بين البشر ومنع الحروب تماما وإطفاء ما يمكن إطفاؤه من النار بوقف إطلاق النار الذى يتحدثون عنه وتأمين اللاجئين الذى فقدوا بيوتهم وأموالهم وأعمالهم وتقديم الطعام والشراب والخيام وعلاج الجرحى ومداواة المرضى وإحصاء الأسرى حتى لا يقتلوا دون حس ولا خبر وسائر مطالب الغوث ومن هذه الطوائف النساء والأطفال والعجزة والشيوخ الكبار وحماية حقوق الإنسان ومنها الدفاع عن النفس والمال والأرض والعرض وحرية العبادة فى المساجد والكنائس والمعابد للجميع دون تفرقة بين دين وآخر وجنس وآخر ولون وآخر ولغة وأخرى.

ثم تمخض الجمل فولد فأرا وحدثت التفرقة العنصرية وقامت الدنيا على رأس المسلمين وحدهم.. فإذا حدث من أى واحد مخالفة بسيطة وقعت الواقعة فوق رأسه ورأس دولته وانطبق عليهم المثل حبيبك يمضغ لك الزلط وعدوك يتمنى لك الغلط.... ووجد الطفل المدلل الذى يفعل كل ما يشاء دون أن يجد زاجرا أو مؤدبا من أهله وفى كل مرة تلقى له المعاذير وتقدم العلل والتأويلات ولا توقع عليه أى عقوبات حتى لو صدرت بها قرارات فهى مع وقف التنفيذ وعلى مر الزمن تنسى ويفوز المجرم بضحيته ويعتبرها حقا مكتسبا..

والقضية الظاهرة فى الساحة الطافية على السطح هى قضية مسلمى البوسنة والهرسك أرادوا تكوين دولة مستقلة بهم كما فعل غيرهم فى جمهورية يوغسلافيا السابقة الصرب والجبل الأسود والكروات... عدوا هذا حراما فى حق المسلمين حلالا لغيرهم من الأجناس الأخرى وزنت الشرعية الدولية بميزانين وكالت بمكيالين وقاست بمقياسين وطبقت حقوق الإنسان بتفسيرين متناقضين ورضيت لنفسها أن تتعامل مع الناس بذمتين.

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ. الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ .أَلا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ . لِيَوْمٍ عَظِيمٍ . يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(1) .

ولله ابتلاءات وامتحانات يمتاز فيها الخبيث من الطيب والمنافق الكذاب الأشر المنادى بالشعار القائل بلسانه ما ليس فى قلبه. . . من الصادق.

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾(2) .

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ. فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ. فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾(3) .

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾(4) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(5) .

وحديث الثلاثة من بنى اسرائيل الأبرص والأقرع والأعمى ابتلاهم الله فأذهب عنهم العاهات والآفات وأعطاهم المال ثم جاء لكل واحد منهم مسكين على صورته التى كان عليها يطلب معروفا فجحد الأبرص والأقرع النعمة وبخلا بالمعروف وأنكرا العاهة الأولى والفقر الأول ولم يصدق إلا الأعمى اعترف بماضيه وأقر حق الله فيه(6) .

أصدر مجلس الأمن ثمانين قرارا لصالح شعب البوسنة والهرسك ومنها قرار ٨٣٦ لسنة ١٩٩٣م.

بإيجاد ست مناطق آمنة تجمع فيها المسلمون فى مقابل نزع سلاحهم وتقديم

---

(١) سورة المطففين آيات ١ ـ ٦. (٢) سورة محمد آية ٢٩. (٣) سورة التوبة آية ٧٥.
(٤) سورة آل عمران آية ١٧٩. (٥) سورة المائدة آية ٩٤.
(٦) حديث ٦٥ فى رياض الصالحين للنووى ـ متفق عليه.

المعونات الإنسانية لهم وحمايتهم ومنع توريد الأسلحة إلى المنطقة كلها ولكن الشرعية الدولية المزعومة لم تنفذ هذا القرار إلا على المسلمين وحدهم وأهملت بقية القرارات الصادرة لصالحهم.

وقام الصرب بالعدوان على المناطق الآمنة المنزوعة السلاح فهى لقمة سائغة وغنيمة باردة وضحية محاطة بالأغلال مجهزة بالقيود الحديدية للذبح دون مقاومة.

تركوا الحماية التى وعدوا بها وقالوا بصراحة ما جئنا لندافع عن المسلمين ورفضوا رفع الحظر عن توريد السلاح بحجة عدم توسيع نطاق الحرب والاقتصاد فى سفك الدماء وتظاهرت دول أوربا النصرانية ضد المسلمين وقد نزع سلاحهم وتمت خديعتهم لم يرحموهم ولم يتركوا رحمة الله تنزل عليهم.

والعلاج الحاسم الواقى للمشكلة هو ضرب وقهر المعتدى أولا حتى يعجز عن الاستمرار فى بغيه وظلمه: استئصال الداء أولا هو الحل الأمثل ثم علاج آثار العدوان بعد ذلك ولو كان المجتمع الدولى عادلا لأخذ بالآية: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[1].

ليت هذه الآيات تكون دستورا فى العلاقات بين الدول لتحقيق العدالة والمساواة بين البشر أما أن نترك المعتدى قادرا على مواصلة ظلمه وبغيه وعدوانه فهو علاج لمظاهر المرض التى تستمر ما لم يستأصل الداء وتنزع الجرثومة فهل يخفى ذلك على صناع القرار وموجهى السياسة فى الدول الكبرى.

وفعل جنود الصرب ما فعله جنكيزخان وهولاكو وتيمورلنك من الذبح والقتل والتمثيل بالجثث واغتصاب النساء جهارا نهارا تحت سمع العالم وبصره الذى يتغنى ليل نهار بحقوق الإنسان ناهيك بالعدوان على المساجد... فقد كانت هناك وكالات الأنباء وبعثات الإذاعات والتليفزيونات ومصورو الصحف ينقلون أخبار الحرب أولا بأول بكل بشاعتها وقسوتها ومرارتها وتتسابق فى ذلك دون أن

(١) سورة الحجرات آية ٨.

يحرك أحد ساكنا فيمد عينه بنظرة رحمة أو يده بقطعة سلاح أو قبضة مال أو زجاجة دواء أو رغيف خبز أو حفنة أرز.

بل إنهم ربطوا جنود الأمم المتحدة فى أعمدة الكهرباء واتخذوهم رهائن واستمر تحديهم للمجتمع الدولى أربع سنوات متوالية دون أن توجه إليهم ضربة جوية واحدة قاصمة للظهر تريهم العين الحمراء وتضطرهم للطاعة ولزوم الجماعة.

على الرغم من الوعيد الشديد والتهديد المستمر وأخيرا فعلها حلف الأطلنطى فقلم أظفارهم وهبطوا ولا يزالون يماطلون فى تنفيذ الاتفاق على السلام.

أعظم امتحان للشرعية الدولية حين تتم المقارنة بين معاملة الصرب ومعاملة صدام حسين فقد حطموا العراق تماما وأبقوا على شخصه وحكمه ونظامه مع أن الشعب مغلوب على أمره.

وهذا من المفارقات العجيبة ولا يقر أحد العدوان والظلم ولكن اختلاف المعاملة وازدواج المعايير بين الظالمين هو الخزى بعينه فهناك من تلحق به أقصى العقوبات وهناك من يترك يمرح ويلهو ويلعب بالنار ويعبث بكرامة الإنسان وحقوق البشر.. حتى لو صدر العقاب فمن الذى ينفذه على من فوق رأسه ريشة وله ظهر فلا يضرب على بطنه.

ولعلنا لا ننسى الطفل الأول المدلل اسرائيل فقد سمحوا له بامتلاك ناصية الأسلحة الذرية والنووية وهو يرفض التوقيع على معاهدة حظر الأسلحة النووية والذرية ويطلب من الدول التى لا تملكها أن توقع عليها وهناك موضوع الأسرى المصريين الذين قتلتهم إسرائيل فى حروبها مع مصر.. فلماذا لا يحاكم مجرمو الحرب الذين أمروا بذلك وهم أحياء فى إسرائيل وهناك ملايين الألغام التى زرعها الإنجليز والألمان فى صحراء مصر الغربية فى الحرب العالمية الثانية وعندهم الخرائط فلماذا تترك لتكون مصدرا للخطر والرعب والموت... وهم يساعدون الطفل المدلل قلبا وقالبا وروحا وجسدًا ليستطيع مقابلة جيوش العرب أجمعين وكتائبهم وجماعاتهم ومنظماتهم ولو مات الألوف منهم ما حرك أحد ساكنا ولو مات عشرة يهود لقامت الدنيا وقعدت، أثبت الطفل المدلل الأول اسرائيل أن الشرعية الدولية أسطورة معاصرة وخديعة ظاهرة

الخراب المستعجل

أذكر حسنة من حسنات الغرب ثبتوا أركانها بعد جهاد طويل مع أنفسهم لكى أكون عادلا ومنصفا مع نفسى وهى الصراع على السلطة..

﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾[1] ...

موضوع قديم يتجدد باستمرار فى كل عصر ومصر على مستوى الولايات الإسلامية المتحدة فى منصب الخلافة وعلى مستوى الولاية الواحدة فى منصب الرئيس، وعلى مستوى الإقليم فى منصب المحافظ بل وعلى مستوى القرية فى منصب العمدة.

وقد أصيب قدماء المصريين والفرس والروم والعرب المسلمون مع الأسف الشديد فى هذا الموضوع إصابات قاتلة منذ أن نازع معاوية بن أبى سفيان الوالى على الشام وكانت ولاية واحدة أما اليوم فقد أصبحت عدة ولايات سوريا ولبنان وفلسطين والأردن وزيد عليها الخنجر المسموم الموضوع فى قلب العرب إسرائيل...

الخليفة الراشد الرابع على بن أبى طالب المبتلى بشتات الأمر [وكان رسول الله ﷺ يستعيذ بالله من وسوسة الصدر وعذاب القبر وشتات الأمر].

كثرت عليه الفتن وأتته من حيث لا يحتسب ومنها أن الداهية معاوية لم يأت البيوت من أبوابها بل دخل من النوافذ من ثغرة... من ثقب إبرة ظل يوسع فيه حتى ولج الجمل فى سم الخياط... وهو قميص عثمان الخليفة المقتول ظلما.

ادعى أنه ولى دمه والمطالب بثأره واتهم عليا بالتحريض على قتله وايواء قتلته ورفض أن يعترف بسلطته وأن يسمع له وأن يطيع حتى يسلم إليه قتلة عثمان فلما نال غرضه وانتصر على الخليفة الشرعى وأصبح ملكا بالفعل خليفة بالاسم ماتت القضية ودفن قميص عثمان فى التراب بعد أن كان يجعله راية منصوبة فوق منبر جامع دمشق لإثارة الجماهير ضد على... ووقعت بين الفريقين حروب أهلية

(١) سوررة المائدة آية ٨.

دامية طاحنة وفتن كبرى أتت على الأخضر واليابس والقائم والحصيد وقتلت الطفل والكهل والرجل والمرأة وأوقفت موجة الفتوحات وعطلت سريان نور الإسلام فى المشارق والمغارب.

وحول معاوية الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض منزوع من الحاكم العادل بالقهر والغصب والضرب والحرب والحيل والألاعيب...

ولم يكفه هذا فى نفسه بل اتبع هواه مرة أخرى فى ابنه يزيد فأخذ له البيعة بالإكراة فى حياته ليطمئن على وراثته للملك بعد وفاته.

ولم يستفد المسلمون من أخطائهم ولم يتعظوا بغيرهم فظل الموضوع مشكلة المشاكل وداهية الدواهى فى مختلف الدول والأجناس والعهود والعقول.

وفى عصرنا هذا رأينا شعب الصومال وهو شعب مسلم عربى يجوع ويعرى ويشقى ويفنى بيد أصدقائه لا بيد أعدائه ويصبح فرجة العالم... فى مأساته وملهاته على شاشات التليفزيونات وليت ذلك كان فى قضية عادلة مثل قضية المبعدين عن فلسطين: ﴿ **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ**﴾[1] الحيارى بين طرد إسرائيل ورفض لبنان يتعرضون للموت جوعا وعطشا وبردا فى مقابل قتيل إسرائيلى واحد بينما هى لا تكف عن القتل كل ساعة، وهى فرجة لا يتكبد المتفرجون عليها مشقة السفر بل يرونها فى بيوتهم بفضل التقدم العلمى المذهل الذى فاز فيه بقصب السبق وبالقدح المعلى وبالمركز الأول ـ الكفار مع الأسف الشديد ـ لما انهزم حاكم الصومال السابق محمد زياد برى تنازع على السلطة بعده محمد فارح عيديد، وعلى مهدى محمد، ومرجان، وغيرهم دون أن يكون فى قلب أحدهم ذرة من الرحمة على الشعب البائس المسكين المطحون... فرجة العالم وهو يتحطم على صخرة المطامع حتى المعونات التى جاءت من آخر الدنيا لأفواه الجياع سرقتها عصابات مسلحة من قطاع الطريق ورأينا فى حياتنا عدة رؤساء للولايات الأمريكية المتحدة وآخرهم جورج بوش يسلم السلطة إلى منافسه بل كلينتون بناء على الديمقراطية وانتخاب الشعب ويخرج من البيت الأبيض فى

---

(١) سورة الحج آية ٤٠.

هدوء تام وسلام عام فلم تتصدع أركان الولايات ولم يتفكك الاتحاد ولم تدفع النفوس فى الجيوش والدولارات؟ فى المصارف لتكون وقود الحرب ولم يأت تدخل من جانب الأجانب ولم تزور الانتخابات ولم تعطل الدساتير ولم تخرج الحيل والألاعيب من أوكار الأفاعى ولم ينتطح فى ذلك عنزان بل وقف الأمر عند حد الدعاية والاعلان، ولم تصب البلاد بالخراب المستعجل الذى ينيخ بكلكله على صدور الدول النامية المتخلفة حتى تغطس ومنها بعض بلاد المسلمين مع الأسف الشديد فلو صدقوا الله وصدقوا أنفسهم وصدقوا شعوبهم لجعل لهم نورا يظهر على ذواتهم وتصرفاتهم وأنزل النصر عليهم.

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[1].

حتى أفغانستان بعد أن ظهر النور عليها تصارع المجاهدون المنتصرون بفضل الله على السلطة فى كابول ووقعوا فى بئر الخراب المستعجل بأيديهم هذه المرة ولم يكفهم ما حدث فى حرب التحرير من الشيوعية وهزيمة القوة العظمى فى العالم أمامهم وكان لهم أسوة فى خالد بن الوليد الذى عزله عمر عن القيادة العامة فلم يأنف من العمل تحت إمرة غيره وجمع الله له بين الحسنيين النصر على الأعداء وعلى النفس فى الجهادين الأصغر والأكبر...

وشتان ما بين الأمريكان فى بلادهم وفى بلاد غيرهم فهم فى السياسة الخارجية يلبسون قناعا ورثوه من الاستعمار الإنجليزى والفرنسى ويملأون الفراغ الذى تركه الإستعماران فى العالم وليس أدل على ذلك من أن إسرائيل ولدت فى حجر بريطانيا العظمى ثم أصبحت ربيبة أمريكا العظمى وطالما ضربت بقرارات مجلس الأمن وهيئة الأمم عرض الحائط دون أن تبالى وهى مطمئنة تماما إلى أن قوة المجتمع الدولى الذى يقولون عنه لن تستخدم ضدها،، ولو فى الحصار أو منع الدعم والمعونات والتفتيش على الأسلحة الذرية فما بالنا بالتحطيم والردع.

---

(١) سورة محمد آية: ٧.

ومضات حنان

الرحمة فى الإسلام وعند المؤمنين قاعدة متبعة فى الشريعة الإسلامية أمرت بها الآيات والأحاديث المذكورة فى المقدمة وظهرت فى التطبيقات والممارسات الموجودة فى المقالات السابقة.. والشيء من معدنه لا يستغرب.... ولا يخلو قلب الإنسان أحيانا [ولو كان كافرا] من الرحمة وهذه بعض ومضات الحنان ونبضات العطف المشهورة المذكورة فى التاريخ الإسلامى والسيرة النبوية الشريفة من مصادرها القديمة والحديثة الكبيرة والصغيرة التى تكتفى بسرد الأحداث والتى تأخذ الدروس وتستنتج العبر وأطلقوا عليها فقه السيرة ومنها كتاب الشيخين محمد الغزالى ومحمد سعيد البوطى [رحمهما الله].

(١) دخل عمر بن الخطاب [وهو غنى عن التعريف] محنقا غاضبا على أخته فاطمة التى سبقته إلى الإسلام وهى دون سن العشرين فاعتدى على زوجها سعيد ابن زيد لأنه كان حنيفا مسلما مثلها وهو دون سن العشرين أيضا وقد رفض أبوه [قبله] عبادة الأصنام بالفطرة فهو من الحنفاء قبل الرسالة والرسول ولما قامت فاطمة لصد العدوان ومنع البغى والدفاع عن المظلوم وهى بذلك تقرر مبدأ الحرية الشخصية فى اعتناق الدين بفطرتها السليمة التى أيدتها الآيات فيما بعد مثل: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[1] لطمها أخوها على وجهها فشجه حتى سال منه الدم فعزت عليها نفسها وسالت قطرات الدموع من عينيها فتحول قلب أخيها فى التو واللحظة من الشدة والغلظة إلى الرفق والعطف والطيبة واللطف واللين والحنان وانتقل من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين... من عدو مبين إلى صديق حميم... هذه اللطمة التى تبعتها نقط الدم وقطرات الدموع فى وجه فاطمة انطبقت عليها الآية: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

والمثل (رب ضارة نافعة) كانت سببا فى خير كثير يطالعه كل من قرأ كتب

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦.

(٢) سورة البقرة آية ٢١٦.

السيرة العامة... والخاصة بعمر بن الخطاب ومواقفه بعد إسلامه فى حياة الرسول وبعد استلايه الدفة فقد أصبح خليفة لأبى بكر لمدة عشر سنوات حتى وافاه الأجل المحتوم شهيدا فى المحراب.

وهذا ما أدعو إليه القراء الكبار مثلى للاستذكار فى مواقف أهل الأمصار والصغار المحدثين للتفقه فى الدين ولا يتكبر أحد على قراءة كتاب مرة ثانية فلكل مرة حلاوة وطلاوة وأذكر بهذه المناسبة قول العقاد رحمه الله لأن يطالع القارئ كتابا واحدا عشر مرات خيرا من أن يطالع عشرة كتب كل كتاب مرة واحدة.. وفى كل مرة يتم قدح الزناد وتتولد أفكار جديدة تطلب التعبير والبيان ويدخل هذا فى مجال احسان العمل وإتقانه وقد وعد الله بحفظه وعدم إضاعته: ﴿ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [1] «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»[2].

والقراءة والكتابة متعة روحية وإن لم يكن فيها فائدة مادية.

(٢) الحصار الاقتصادى:

اتفق كفار مكة على المقاطعة العامة والحصار الاقتصادى لبنى هاشم والمطلب فى شعب أبى طالب فلا بيع ولا شراء ولا زواج ولا محادثة ولا زيارة وكان المقصود ارغامهم على تسليم الرسول للقتل ولكنهم فدوه بأنفسهم وكتب أهل مكة صحيفة بذلك علقوها فى جوف الكعبة وظل الحصار الاقتصادى ثلاث سنوات كان يسمع فيها عويل وصراخ الأطفال وهم يتألمون من شدة الجوع وكانوا يربطون الحجارة على بطونهم، ولم يبق المحاصرين على قيد الحياة إلا أكل ورق الشجر والجلود وخشاش الأرض والخروج من الشعب فى الأشهر الحرم لشراء شىء من القوت بعيدا عن عيون أهل مكة وتجارها الذين يرصدون حركاتهم وسكناتهم وما يفعله ذوو القلوب الرحيمة من الكفار الذين يرفضون قطيعة الرحم ووصول العداوة إلى هذا الحد بالموت جوعا للكبار والصغار فكانوا يتحفونهم بالطعام فى جوف الليل وشدة الظلام والناس نيام.

ومنهم هشام بن عمرو ولما اشتدت على نفسه مرارة الظلم وبلغ السيل الذى

---

(١) سورة الكهف آية ٣٠.

(٢) حديث. مشهور.

قام بنصر المظلوم وسعى فى نقض الصحيفة [وإن كانت معلقة فى جوف الكعبة] فليس للظلم حرمة وإن كان فى البيت الحرام والبلد الحرام فالظلم ظلم أينما كان وإنهاء المقاطعة العامة والحصار الاقتصادى وابتغى على هذا الخبر أعوانا: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[1].

وكما جاء فى المثل اليد وحدها لا تصفق.

منهم زهير بن أبى أمية المخزومى وأمه عاتكة بنت عبد المطلب فالمطاليم أخواله، والمطعم بن عدى وأبو البخترى بن هشام وزمعة بن الأسود بن المطلب...

وكان المتحدث باسم القوم المحامى عنهم زهير وقام المطعم [بعد مؤازرة إخوانه] بشق الصحيفة فأخبرهم أبو طالب بناء على ما ذكره ابن أخيه رسول الله أن الارضة أكلتها ولم يبق فيها إلا باسمك اللهم... فلما تيقنوا صدق الخبر انتهى الحصار وخرجوا إلى مساكنهم ورجعوا إلى بيوتهم...

وبهذه المناسبة أليس بين الدول المتحضرة التى تقود العالم وتدعى السيادة على الأرض أن تنهى الحصار عن شعب العراق وكفاه ما عاناه من حكامه وأصدقائه وأعدائه...

وما ذنب المرضى والنساء والأطفال والشيوخ الكبار. وبهذه المناسبة أذكر المثل من فات قديمه تاه.

فالزراعة أساس الحضارة فى العراق ومصر وليبيا والسودان والاعتماد على النفس مخفف من أخطار الحصار الاقتصادى... وكذلك الحال فى الاعتماد على غلة واحدة... ليت حكام كل بلد يفهمون هذا الدرس جيدا ولا يفرطون فى شبر واحد من الأراضى الزراعية وتتجه سياستهم إلى الاكتفاء الذاتى والإعتماد على النفس ولا يكون الاعتماد على الغير إلا فى أضيق الحدود فى الكماليات دون ضرورات الحياة اليومية التى لا يصبر أحد على فقدها أو تركها وإن وجد الصبر عنها فإنه لا يطول وله حدود وهناك من لا يصبر من الأطفال والنساء والشيوخ

---

(١) سورة المائدة آية ٢.

والمرضى سرعان ما يجأرون بالشكوى وتتعالى صرخاتهم ويعلو بكاؤهم ولا راحم لهم إلا الله.

(٣) أم سلمة هند بنت حذيفة بن المغيرة المخزومية أسلمت مع زوجها عبدالله ابن عبد الأسد بن هلال المخزومى فى الرعيل الأول وهاجرا إلى الحبشة ثم عادا إلى مكة وسبقها زوجها فى الهجرة إلى المدينة المنورة وتركها مع ابنها [وحدهما] مضطرا فقد منعها قومها من السفر وجاء أهل الغلام فأخذوه منها فأصبحت وحيدة حيل بينها وبين زوجها وابنها فكانت تخرج كل يوم إلى الأبطح تبكى حتى يأتى المساء لمدة عام فرثى لحالها ورق لبلواها ابن عم لها وتشفع عند أهلها فسمحوا لها بالخروج مع ابنها الصغير ولقيها عثمان بن طلحة بالتنعيم وهى مهاجرة فعز عليه أن تسافر وحدها فى الصحراء الموحشة المحرقة فأخذ بخطام بعيرها وكان يتأخر عنها فى محطات الراحة حتى يستجم الأربعة [هى وابنها والجمل والجمال] من وعثاء السفر رضى أن يكون جمالا خاصا دون أن يتقاضى على ذلك أجرا فكم لبث فى رحلة الذهاب والإياب بسير الجمل فهى امرأة مظلومة مضطهدة غريبة بين أهلها ووطنها فقيرة لا تملك من حطام الدنيا شيئا ويكفى أنها نجت بجلدها من القوم الظالمين وأفلتت بدينها وروحها وحريتها وظل معها على هذا الحال حتى وصلت بسلامة الله إلى قباء فدخلتها حيث التأم شمل الأسرة وعاشت مع زوجها حتى استشهد فى سرية إلى بنى أسد سنة ٤ هـ على إثر جرح أصابه فى أحد ثم اعتل عليه وترك لها أربعة أولاد [سلمة وعمر وزينب ودرة].

وكان من التقاليد المحمودة والأعراف الحسنة والرحمة التامة أن تجد أرملة الشهيد زوجا كافلا لأولادها اليتامى وهذا ما يفعله أصحاب القلوب الرحيمة من أغنياء المسلمين مع أرامل ويتامى شعب البوسنة والهرسك تأسيا بفعل أسلافهم.

والمعاشات سنة حسنة فى الإسلام لمن سنها أجره وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء[1] ولكنها لا تنفع إلا فى دولة قائمة البنيان موطدة الأركان يغلب عليها طابع الإسلام فهل يعطى ذئاب الصرب والجبل الأسود

---

(١) حديث ١٧١ فى رياض الصالحين للنووى - رواه مسلم.

معاشات للحمل الوديع شعب البوسنة والهرسك رحم الله أم سلمة وعوض صبرها وجزاها خيرا فقد أصبحت من أمهات المؤمنين وكانت آخرهن موتا سنة ٦١ هـ في خلافة يزيد بن معاوية بن أبى سفيان عن عمر يصل إلى أربعة وثمانين عاما وصلى عليها أبو هريرة ودفنت بالبقيع وروت عن رسول الله [زوجها] ثلاثمائة وثمانية وعشرين حديثا.

العوض عند الله

ينبغى على كل مسلم أن يقدم نيته خالصة صافية لله عز وجل فى كل قول يلفظه بلسانه.

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1].

أو عمل يقوم به: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾[2]. سواء كان ذلك فى العبادات أو المعاملات أو العادات ويبتعد عن الرياء والفخر والتظاهر بالشجاعة والطاعة والكرم والمروءة والنجدة والإيثار إن كانت هذه الصفات ليست من طبعه وإنما يفعلها من باب الرياء.

والآيات والأحاديث فى هذا الموضوع كثيرة أكتفى بشىء منها على سبيل التمثيل لا الحصر.

﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ. إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ. وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[3].

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾[4] وحديث «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[5].

وهو حديث صحيح مشهور مذكور فى جوامع الصحاح متفق عليه بين البخارى ومسلم بلغ من رتبته أنه كان الأول فى الكتاب كله وعلى رأس باب الإخلاص أول الأبواب..

حتى الأعمال المعتادة التى تفرضها الغريزة والعادة تتحول إلى عبادة إذا سبقتها نية التقرب إلى الله بهذا العمل، ومن المعلوم أن النية تسبق العمل لينال صاحبه

---

(١) سورة ق آية ١٨.
(٢) سورة الإنسان آية ٩.
(٣) سورة الليل آية ١٩ ـ ٢١.
(٤) سورة البينة آية ٥.
(٥) حديث فى رياض الصالحين للنووى متفق عليه.

الثواب عند الله فهل يصح أن تأتى النية متأخرة فى الأعمال التى لم تسبق فيها نية صالحة ويحب العامل أن يستدرك ما فاته من النية ليحظى بالثواب. سؤال وجيه موجه إلى أهل الفتوى.

ومحل النية القلب كما هو معلوم ولا يشترط التلفظ بها ومن ذلك هدية الثواب فهى سنة جاء فيها الحديث **«تهادوا تحابوا»**(١) ولا تستعاد أو تسترد **«فالعائد فى هبته كالكلب يعود فى قيئه»**(٢) ويكفى التشبيه وإن كانت بعض النفوس حين يتمكن منها البغض بعد الحب تريد تجريد الحبيب من كل شىء أخذه أو انتفع به قل ذلك أو كثر.. وكان رسول الله يقبل الهدية ولو كانت شيئا قليلا ويثيب عليها.

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال **«لو دعيت إلى ذراع لأجبت ولو أهدى إلى ذراع أو كراع لقبلت»**(٣) وفى حديث آخر **«يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرس شاة»**(٤) ولو كانت الهدية من كافر فقد قبل رسول الله ﷺ هدايا المقوقس عظيم القبط فى مصر جاريتين هما مارية وسيرين لهما مكان عظيم فى قومهما فاختص نفسه بمارية فولدت له ابنه إبراهيم وأعطى سيرين لحسان بن ثابت وكسوة يلبسها وبغلة يركبها...

وفى مقابل هدية الثواب هدية العوض التى تعود الناس على بذلها فى المناسبات الهامة والسارة كالأعراس وقد أصبحت على مراحل الشبكة والكتاب والدخول والأعياد والميلاد والختان وذهاب وعودة الحجاج والنجاح فى الامتحان والتعيين فى الوظائف أو المحزنة كالمرض والموت والحريق والفصل من العمل...

ويحسن ذكر طرفة فى هدية العوض من التاريخ الإسلامى وقعت فى عهد عمر بن الخطاب.. سير مع البريد أم كلثوم بنت على بن أبى طالب إلى ملكة الروم بطيب ومشارب وأحفاش فأهدتها ملكة الروم عقدا فاخرا فلما وصل البريد جمع مجلس الشورى فقال قائل: هو لها بالذى لها وليست امرأة الملك بذمة فتصانع به ولا تحت يدك فتفيك وقال آخر كنا نهدى الثياب لنستثيب ونبعث بها

---

(١) فقه السنة ٣/٣٨٨.

(٢) رياض الصالحين للنووى حديث ١٦١٢.

(٣) حديث ٦١٠ فى رياض الصالحين للنووى.

(٤) حديث ١٢٤ فى رياض الصالحين للنووى.

لتباع ونصيب شيئا فقال ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم والمسلمون عظموها فى صورها فأمر بردها إلى بيت المال ورد عليها بقدر نفقتها[١].

وكثير من الناس وهم ذوو نسب فى الإسلام عريق ورثوه أبا عن جد وكابرا عن كابر لا يفعلون خيرا ولا يبذلون معروفا ولا يؤدون خدمة ولا يعودون مريضا ولا يشيعون جنازة ولا يطعمون طعاما ولا يصلون أرحاما ولا يلقون سلاما ولا يجيبون دعوة ولا يشفعون شفاعة حسنة ولا يكرمون ضيفا ولا يكفلون يتيما ولا يعلمون جاهلا ولا يرشدون ضالا ولا يبرون مقسما ولايزورون صاحبا ولا يميطون أذى ولا يسترون مسلما ولا يدخلون السرور على قلب أحد إلا رجاء المعاملة بالمثل وانتظار العوض عند المسبوق بالفضل. والرد على الجميل وارد فى الإسلام: ﴿ وإذا حُيِّيتُم بتحية فحَيُّوا بأحْسَنَ منهَا أَوْ ردُّوهَا﴾[٢].

﴿ هَلْ جزَاءُ الإحْسَانِ إلاَّ الإحْسَانُ﴾[٣] وفى الحديث «من أتى إليكم معروفا فكافئوه فإن لم تجدوا فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه»[٤].

فالرد وارد ومطلوب ومندوب، فإذا لم يقدم الطرف الآخر المرجو منه وخاب الأمل فيه وقد يكون ابنا أو أخا شقيقا أو غير شقيق أو قريبا أو جارا أو صديقا أو زميلا أو نسيبا أو عديلا تحول ما بينهما إلى عداوة بعد الصداقة والمحبة والأخوة وأكل الحقد قلبه وظن فى نفسه أن الآخر يراه فى صورة المغفل.

أو رد عليه بمبلغ أقل لأنه فقير يرد على غنى ولا تستطيع السلحفاة أن تسبق الأرنب ولا يقدر الحمار على مسابقة الجواد ولا تسبق العجلة السيارة وبتعبير آخر ليس المفاليس فى مستوى المساتير ولا المساتير فى مستوى المياسير ولا من قدر عليه رزقه بمن بسط له رزقه فى النفقة والهدايا.

والمعنى موجود فى الآية: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾[٥].

---

(١) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية ٢/٢٦ للشيخ محمد الخضرى.
(٢) سورة النساء آية ٨٦ (٣) سورة الرحمن آية ٦٠.
(٤) حديث ١٧٢٣ فى رياض الصالحين للنووى، الترغيب والترهيب ٢/٤٨ للحافظ المنذرى.
(٥) سورة الطلاق آية ٧.

وهذا شأن الماديين الذين لا يفعلون خيرا إلا فى مقابل مادى وتكون المسألة كأنها شبكة صياد يقدم المهدى خمسة يرجو العوض عند المهدى إليه عشرة أو على الأقل مثل ما بذل بل إنهم يكتبونه فى دفتر لئلا تنساه الذاكرة وليس الرجاء عند الله؟ أليس من المحتم أن يكون الرجاء فيه وحده وأن ينتظر العوض عنده(1) فقد تتغير الظروف يكون المهدى إليه طفلا صغيرا ينسى ويجحد بعد كبره التضحية العظيمة طول العمر ويراها واجبا لا شكر عليه وفرضا لازما لا فضل فيه لأحد يعتبر الحاضر هو كل الصورة وينسى الماضى تماما - وقد ينقل المهدى إليه من البلد أو يترك الحيّ فيكون البعد بعد القرب والجفاء بدل الود والقطيعة فى محل الصلة أو يفتقر بعد الغنى أو يمرض بعد الصحة أو يموت بعد الحياة أو يبخل بعد الكرم أو يعترى العروة الوثقى فتور والحماسة برود وجمود أو تختلف المصالح بعد اتحادها وقد يجد التهوين والتحقير لما فعله بجانب التكبير والتعظيم والتجميل لأن الأول ليس خفيفا على القلب ولا مهضوما فى المعدة ولا مرضيا عنه كل الرضا بسبب كلمة حق قالها أو شهادة صدق شهدها أو دفاعا عن مظلوم لم يجامل فيه أحدا. . .

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدى المساويا

وهناك من تعود على أن يأخذ دون أن يعطى حجر أصم لا يبض بقطرة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(2).

تعود أن يُخْدَم ولا يخدم هو أحدا لا يعرف إلا مصلحته الحاضرة فلا ينظر إلى الماضى ولا إلى المستقبل. . .وقد يتمرد [إذا كان لئيما] على من أحسن إليه ويجزيه جزاء سنمار خصوصا إذا واتته فرصة الصعود فى الدنيا وتبوأ من المناصب

---

(1) ﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءا ولا شكورا﴾، سورة الإنسان آية: ٩ وكذلك الحال فى كل إحسان أو خير يقدم للغير.

(2) سورة البقرة آية ٧٤.

والمراتب فوق مستواه النفسى وانعكس كل ذلك على صلته بالآخرين خصوصا أصحاب الفضل عليه وهو صغير قبل أن يكبر.

وفى كل هذه الأحوال يضيع المعروف فى الدنيا ويذهب هدرا كما يصب ماء النهر فى البحر بل إنه يضيع فى الآخرة أيضا لأن النية كانت متجهة إلى الدنيا أما إذا كانت غايته متجهة إلى السماء لا إلى الأرض وكان تعامله مع الله لا مع الأشخاص وقلبه متجه إلى اليد العليا لا إلى أيدى السفلة فإنه يطمئن تماما إلى الكريم الغنى الوهاب الرزاق الشاكر العليم الذى لا يتغير على مر الزمان لن يضيع معروفه ولن يجحد خيره: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾[1] الله يعلم الخير ولا ينساه ويجزى عليه أضعافا مضاعفة لا تقل عن ضعف واحد وقد تزيد على سبعمائة ضعف.

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾[2].

وتنبغى الإشارة إلى مراجعة مقالة رصيد المؤمن السابقة فى هذا الكتاب[3].

وبذلك تهدأ نفسه ويبتعد الحقد والغل والقلق عن قلبه حتى لو قوبل بالعقوق ونكران الجميل على سبب تافه لم يسمع فيه دفاع المتهم عن نفسه وقد تكون حسنة تحولت إلى سيئة فى القلوب المريضة التى ترى صورتها فقط وقد جاءت الوصية بالرحم للكاشح كما جاء فى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا قال: يا رسول الله إن لى قرابة أصلهم ويقطعونى وأحسن إليهم ويسيئون إلى وأحلم عنهم ويجهلون على فقال: **«لئن كنت كما قلت فكأنما نسفهم الملل ولا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك»** رواه مسلم[4].

وهناك صور بشعة ومظاهر مخزية وآمال خائبة يراها الآباء والأمهات والأخوة والأخوات فى فلذات أكبادهم وأحب الناس إلى قلوبهم.

وأمرهم إلى الله فى البداية والنهاية والأولى والآخرة.

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٥.
(٢) سورة البقرةآية ٢٧٢.
(٣) الإسلام دين الرحمة ص ٨٨.
(٤) حديث ٣١٨، ٦٤٨ رياض الصالحين للنووى

كنيسة محروسة

تحرس الحكومات المصرية المتعاقبة من عهد الرئيس السادات إلى اليوم جميع الكنائس الموجودة داخل مصر بصفة دائمة ليلا ونهارا بواسطة جنود مسلمين مسلحين.

وقد بقيت كنائس النصارى فى بلاد المسلمين على الرغم أنهم أقليات فى وسط أكثريات أو أغلبيات هى صاحبة الحكم والسيادة بينما نرى الطرف الآخر فى الأندلس قد حول المساجد إلى كنائس..

ولا زالت هذه الروح البغيضة موجودة فى الصرب عند حربهم المسلمين فهم يهدمون المساجد على أهلها ولا يبالون بالمصلين فيها فالقذيفة الواحدة تصيب أكبر عدد ممكن ولكن الروح الإسلامية مليئة بالرحمة والتسامح فرغم المجازر البشعة فإن جيش البوسنة المسلم لا يعاملهم بالمثل فيهدم الكنائس.

وهذه هى القاعدة المتبعة فى ترك الأديان الأخرى تتعايش مع الإسلام جنبا إلى جنب تعايشا سلميا وضمان حرية العبادة داخل دورها قولا وعملا من عهد عمر بن الخطاب الذى رفض أن يصلى داخل كنيسة القمامة فى بيت المقدس وصلى منفردا على الدرجة أمام الباب وأوصى ألا يؤذن عليها ولا يصلى عليها ولا يتخذها أحد من المسلمين بعده مسجداً ويقولوا هنا صلى عمر...

وشتان بين معاملة عمر فى فتح بيت المقدس ومعاملة الصليبيين حين سقطت فى أيديهم ومعاملة صلاح الدين الأيوبى حين أعادها لحكم المسلمين.

لقد تعرضت مساجد المسلمين فى كثير من دول العالم وفى مختلف عصور التاريخ من الصليبيين والتتار والبوذيين والشيوعيين والهندوس والأسبان والفرس والهنود واليهود للعدوان الغاشم..

وآخر ما حدث من ذلك أن إسرائيل تركت المستوطنين المتطرفين اتباع حركة كاخ التى أسسها الحاخام الإرهابى كاهانا ومعناها الطريق الصحيح لسنة ١٩٧١ ويرفضون مبدأ التعايش السلمى مع العرب ومنهم طبيب اسمه جولدشتاين وهو

يهودى من أصل أمريكى هاجر إلى إسرائيل سنة ١٩٨٣م وغيره يحملون السلاح ويطلقون الرشاشات التى تقذف فى الدقيقة الواحدة مئات الطلقات على المصلين فى الحرم الإبراهيمى بمدينة الخليل وهم بين يدى الله ركع سجود فى صلاة الفجر وهى أشق الصلوات وراح ضحية الحادث تسعين شهيدا وثلاثمائة جريح فى يوم الجمعة ١٥ من رمضان ١٤١٤ هـ ٢٥/ ٢/ ١٩٩٤م فلم تكن هناك حراسة بالمرة على مساجد المسلمين فى مدن وقرى فلسطين الواقعة تحت حكم إسرائيل . .

وقد تعرض المسجد الأقصى فى القدس ثالث الحرمين وأولى القبلتين فى سنة ١٩٦٩م للحريق فتهدمت أجزاء منه وتكررت المحاولات سنة ١٩٨٠، ١٩٨٣، ١٩٨٤، ١٩٨٦وقعت مذبحة فى ساحته فى أكتوبر ١٩٩٠م فقتل ثلاثين وجرح مئات .

وفى بيت الخورى ٥/ ٥/١٩٤٨م جمعت العصابات اليهودية الهاجناه وشيترن شباب القرى فى منزل واحد وأحرقت فيه النيران وفى اليوم التالى جمعوهم فى مسجد ونسفوه فى منطقة مقبرة الزيتون وكل هذا لبث الرعب فى المنطقة حتى يترك الفلسطينيون أرضهم وديارهم ونقص عددهم بنسبة ٩٠٪ .

وفى ٢٥/ ١٢/ ١٩٥٢ هدمت قوات الإحتلال الإسرائيلى كنيسة افرن المسيحية قرب الحدود اللبنانية .

وفى ٢٦/ ٩/ ١٩٥٣ هدمت قوات الاحتلال دير وكنيسة كفر برعم وفى أغسطس هدمت مسجد الريحانية وحولت مسجد نبى الله داود فوق جبل صهيون إلى معبد يهودى . . فى القدس .

أليست كل دولة مسئولة وضامنة لحرية العبادة داخل أراضيها لجميع رعاياها الذين وقعوا تحت حكمها طوعا أو كرها ,وسواء كانوا ينتسبون إلى دينها أم إلى أديان أخرى . . .

وإذا وقعت حادثة فلماذا لا يأخذ الجناة جزاءهم العادل السريع وهو القصاص الرادع عن الفساد فى الأرض لأن شرارة الثأر تكون قد اشتعلت والمعاملة بالمثل تكون قد تحكمت فى النفوس الثائرة التى لاتهدأ ولا تبرد نارها إلا بمزيد من الدماء

ثم تقوم الحكومة بدورها فى المحافظة على الأمن واتخاذ الاحتياطات التى تمنع تكرار الحوادث والعدوان على الركع السجود الآمنين فى بيوت الله ومنها الحراسة المستمرة بصفة دائمة ليلا ونهارا بواسطة جنودها. . وإسرائيل منحازة إلى المستوطنين تحرضهم ثم تحميهم بعدم الحراسة فلزم الالتجاء إلى القوات الدولية التى تشارك فيها دول إسلامية وعربية. . .

وهذه مسئولية الأمم المتحدة ومجلس الأمن إن لم تقم بها الدولة أو ظهر منها أى تقصير أو انحياز.

لله عجائب فى مخلوقاته فهو يخرج الحى من الميت والعكس

﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾(١).

﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون ﴾(٢).

وآيات أخرى بهذا النص وآيات تحمل المعنى بألفاظ أخرى.

﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا﴾(٣).

العدم بداية كل موجود ونهاية كل حى فهى معجزة كبرى تدل على البعث وتتحدى قدرة الإنسان ولو كان ملكا كبيرا يزعم أنه سيد العالم وملك الملوك فى كل لحظة وهنا تأتى محاولة إبراهيم الخليل مع الملك نمروذ فقد زعم أنه يحيى يحكم على إنسان بالإعدام فإذا نفذت الزبانية أمره كان موتا وإذا عفا عنه قبل التنفيذ كان حياة والمقصود هو الخلق من العدم وسلب الروح دون البذية..

ومع ذلك فقد تجاوز إبراهيم مجال الجدل بحجة دامغة فقال له: ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾(٤).

ويخرج الكافر من المؤمن فقد كان نوح رسولا من أولى العزم فأخرج من صلبه ابنا كافرا أبى أن يدخل السفينة لينجو من الغرق وآثر البقاء على الجبل ظنا منه أنه حبل النجاة فانقطع الحبل ولو كان جبلا: ﴿ ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين. قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾(٥).

---

(١) سورة الروم آية ٢٠.
(٢) سورة الأنعام آية ٩٥
(٣) سورة الإنسان آية ١.
(٤) سورة البقرة آية ٢٥٨
(٥) سورة هود آية ٤٢، ٤٣

﴿ وَالَّذي قَالَ لوَالدَيْه أُفٍّ لَّكُمَا أَتعدَانني أَنْ أُخْرج وَقَدْ خَلَت الْقُرُونُ من قَبْلي وَهُمَا يَسْتَغيثَان اللَّهَ وَيْلَكَ آمنْ إنَّ وَعْدَ اللَّه حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إلاَّ أَسَاطيرُ الأَوَّلين﴾[1].

أهله حريصون على هدايته ولكنهم لا يقدرون عليها لأنها من الله ويخرج المؤمن من الكافر... ملايين من الناس هداهم الله إلى الإسلام على مر السنين والعصور والقرون وفى مختلف الأوطان والبلاد بعد أن كانوا كفارا وخالفوا آباءهم وأجدادهم وأمهاتهم وأظهر الأمثلة على ذلك إبراهيم الخليل الذى ترك ملة أبيه آزر نحات الأصنام وعابدها: ﴿وَإذْ قَالَ إبْرَاهيمُ لأَبيه آزَرَ أَتَتَّخذُ أَصْنَامًا آلهَةً إنّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ في ضَلالٍ مُّبينٍ﴾[2].

ويخرج المؤمن من المؤمن: ﴿ وَالَّذينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بإيمَانٍ أَلْحَقْنَا بهمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مّنْ عَمَلهم مّن شَيْءٍ كُلُّ امْرئٍ بمَا كَسَبَ رَهينٌ﴾[3].

ويخرج الكافر من الكافر: ﴿ وَكَذَلكَ مَا أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ في قَرْيَةٍ مّن نَّذيرٍ إلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإنَّا عَلَىٰ آثَارهم مُّقْتَدُونَ﴾[4].

وفى دعاء نوح على قومه: ﴿ إنَّكَ إن تَذَرْهُمْ يُضلُّوا عبَادَكَ وَلا يَلدُوا إلاَّ فَاجرًا كَفَّارًا﴾[5].

لتظهر طلاقة القدرة فى الحياة والموت والإيمان والكفر والصحة والمرض والغنى الفقر والبصر والعمى والعلم والجهل والذكر والأنثى والظل والحرور والظلمات والنور.

وقد انتشر الإسلام فى عهد رسول الله ﷺ ودخل الناس فى دين الله أفواجا ولم يتوقف انتشاره بعد ذلك فى سائر العصور، بقيت فيه عوامل تجذب القلوب والعقول ذات الاستعداد الخاص والاستقبال الحسن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

---

(١) سورة الأحقاف آية ١٧.
(٢) سورة الأنعام آية: ٧٤.
(٣) سورة الطور آية: ٢١.
(٤) سورة الزخرف آية: ٢٣.
(٥) سورة نوح آية: ٢٣.

ومن هذه العوامل :

أ) اتحاد الكلمة فيه بين العقل والنقل فقد أمر بالتفكر التدبر وأثنى على العقل فى كثير من الآيات اذكر منها على سبيل الاستدلال بالمثال لا على سبيل الحصر فالآيات كثيرة : ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[1].

وممن نفعه عقله ودله على الإسلام خالد بن الوليد قدم على رسول الله فى صفر سنة٨ هـ فسر رسول الله بإسلامه وقال له: قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير وشاركه فى رحلة الهداية عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة العبدرى وأثنى رسول الله على عقل سهيل بن عمرو الذى أسلم بالجعرانة بعد فتح مكة.

ويقود العقل السليم إلى التوحيد بدل التعدد: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[2].

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[3].

وتفصيل الفساد فى الآية التالية ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[4].

والتثليث من تعدد الآلهة المستحيل فى العقل السليم؟ قبوله وتأليه المسيح لأنه خلق من غير أب حجة داحضة ويقولون إنه مولود غير مخلوق وهى جملة تحمل فى طياتها التعارض والتناقض فالمولود لابد أن يكون مخلوقا فاضطروا لحذفها وهنا وقعوا فى محظور آخر وهو التبديل والتغيير فى الإنجيل وإذا كانت حجة التأليه هى وجوده من غير أب فآدم أولى لأنه خلق دون أب ولا أم: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[5].

كلاهما لم يخرج عن طور البشرية التى تستلزم صفات الحياة والموت والعدم

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٦٩.
(٢) سورة المؤمنون : ١١٧.
(٣) سورة الأنبياء: ٢٢.
(٤) سورة المؤمنون آية: ٩١.
(٥) سورة آل عمران ٥٩.

والوجود والنوم والصحو والصحة والمرض والطفولة والفتوة والرجولة والشيخوخة واتخاذ الصاحبة والولد.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[1].

هو متصف بكل كمال منزه عن كل نقص والتوفيق بين التوحيد والتثليث وبين الألوهية والبشرية مستحيل فى العقل السليم ويلجأون إلى المكابرة فيلجأون إلى مقالة الحلول والاتحاد والعقدة هنا أشد والتناقض أعظم كيف يمكن حبس الإله فى جسد... تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ومن العقل السليم الاهتداء بالأثر على المؤثر وبالسبب على المسبب: ﴿ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[2].

ومن اتحاد الكلمة فيه بين العقل والنقل النهى عن شرب الخمر وسائر المخدرات التى تغيب العقل وتجنى عليه وتجريم كثير من الفواحش ماظهر منها وما بطن، والأمر بالشورى وإباحة الاجتهاد ومعرفة حكمة التشريع وعلل الأحكام وأعطى للمجتهد المصيب أجرين ولم يحرم المجتهد المخطئ من الثواب أعطاه أجرا واحدا.

٢ـ الإيمان عن اقتناع تام لاجبر فيه بناء على الآيات: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[3].

﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[4].

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[5].

وهنا يلزم التنويه والتفرقة بين القاعدة السابقة وبين دعوى الخصوم إنه انتشر بالسيف فهل كان أى سيف فى إيمان الأنصار فى بيعة العقبة الأولى والثانية وما تلاهما من انتشار الإسلام فى المدينة، لم يكن الإسلام إلا عن طريق الاقتناع التام

---

(١) سورة الإخلاص كلها.
(٢) سورة النمل آية ٦٠، ٦١.
(٣) سورة البقرة آية: ٢٥٦.
(٤) سورة يونس ٩٩.
(٥) سورة البقرة آية ٢٧٢.

الذى لا إكراه فيه.

وما فرض القتال الالحماية هذا المبدأ وهو حرية نشر الدعوة والدفاع عن المؤمنين فلا يفتنوا حتى يعودوا إلى الكفر: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾(1).

ويكفى فى الإقناع وجود أقليات كافرة آمنه على أرواحها وأموالها وأعراضها وأولادها وأديانها وكنائسها وصلبانها ورهبانها ومعابدها وأعمالها داخل أكثريات مسلمة لمدة ألف وأربعمائة عام تقريبا تقلبت عليهم فيها مختلف الدول الإسلامية ومع ذلك ظلت القاعدة محترمة ومن المعلوم من الدين بالضرورة أن الكافر المسالم غير المحارب فى الأحكام وقد سبق فصل منتهى التسامح فى هذا الكتاب أما الأقليات المسلمة وسط أكثريات كافرة فهى تتعرض لحرب الإبادة ويكفى الإشارة إلى محنة المسلمين فى الأندلس وصقلية وأوربا وفى قفص الدب داخل الاتحاد السوفيتى وخارجه فى دول الستار الحديدى [وهو أسلاك شائكه أقيمت بعد انتصار الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية واقتسام مناطق النفوذ وأماكن الحماية بين روسيا وحلفائها حتى لا يتعدى عليها أحد، وبين عباد الأوثان والبقر والماعز فى الهند والصين حتى مجرد الأسماء أعلنوا عليها حربا شعواء.

٣ - الأخوة بين أتباع الدين.

النصوص فى هذا الموضوع كثيرة مابين آيات مثل: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (2).

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾(3).

---

(١) سورة الحج آية ٣٩، ٤٠.

(٢) سورة الحجرات آية: ١٠.

(٣) سورة آل عمران آية: ١٠٣.

وأحاديث مثل **«لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه»** [1].

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[2].

«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[3].

ليس هناك تمايز فى الإسلام بسبب الأموال والأولاد.

﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ. إلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[4].

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾[5].

وهذا ظاهر فى صفوف الجماعة داخل المساجد فى الصلوات الخمس والجمعة والحج على المستطيع والصيام فكان أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وهم من سادة قريش أخوانا لصهيب الرومى وسلمان الفارسى وبلال الحبشى.

وقد أراد الكفار أن يطرد هؤلاء المساكين من مجلسه وأنفوا من الظهور معهم فى مكان واحد وزمن واحد وطلبوا أن يكون لهم مجلس خاص ليس فيه هؤلاء العبيد وقد رفض هذا الطلب طبعا لأنه ينافى الأخوة فى الدين ونزلت الآيات».

﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[6].

ليس هناك تمايز فى الإسلام بحسب الصبغة أو اللون أو اللغة أو الجنس **«إن الله**

---

(١) حديث ٢٣٦ فى رياض الصالحين .

(٢) حديث ٢٣٢ سابق .

(٣) حديث ٢٣٤ فى رياض الصالحين .

(٤) سورة الشعراء آية ٨٨.

(٥) سورة سبأ آية ٣٧.

(٦) سورة الأنعام آية ٥٢

لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[1].

ولازال العالم المتحضر حتى يومنا هذا يعانى من من التفرقة على أساس الطبقة أو على أساس اللون وهناك مشكلة الملونين فى أمريكا التى تتزعم مسيرة» الحضارة المعاصرة لم يتجاوزوها إلا بصعوبة شديدة وكفاح دائم وحروب بين الشمال والجنوب كان بطلها إبراهام لنكولن . .

وكانت المفارقة واضحة فى الشعوب السوداء التى تحكمها أقلية بيضاء تريد أن تأخذ كل الحقوق وتحرم الآخرين من جميع الحقوق . .

الإسلام دين عالمى اعتنقه الناس من سائر الأجناس العرب والفرس والروم والمصريون والسودان والحبش والأتراك والأسبان والأكراد والبربر والهنود والصين والمغول وفى العصر الحديث الإنجليز والفرنسيون والألمان والأمريكان ألخ وهو ينتشر فى القارة السوداء إفريقيا . . . لهذا السبب.

٤ ـ التعادل بين الحقوق:

لا يطغى حق فى العبادة فى الإسلام على حق الجسم والزوجة والأولاد فلا رهبانية فى الإسلام ولا يستقيم أمر الدنيا على الرهبانية من الذى يصون نفسه عن ارتكاب الفواحش وغشيان الشهوات الظاهرة والباطنة إلا أن يكون مؤيدا من الله بالعصمة . . وقليل ماهم وينحصرون فى الرسل والأنبياء المصطفين الأخيار وعلى أى حال فقد جعل الله للأغلبية منهم أزواجا وذرية، وإذا كان الله قد أراد للدنيا أن تبقى إلى أجل معلوم فإن الرهبانية تؤدى إلى انقطاع النسل وخراب العالم قبل الموعد المحدد عند الله ومن الذى يسعى فى الأرض ويمشى فى مناكبها ويسترزق من فضل الله . . وقد تشدد بعض الصحابة على نفسه فكان يصوم الدهر ولا يفطر ويصلى الليل كله ولا يرقد ويعتزل النساء فبين الرسول خطأ هذا التفكير والسلوك وأنه يدخل باب المشقة على النفس والتكليف بما لا يطاق ولو كان سلوكهم ممدوحًا ومحمودً لكاان الرسول به أولى وذكر أن العبادة الحقة والخشية الصادقة لا تستلزم هذه الشدة وإنما هى مزاوجة بين الصوم والفطر [وهذا فى غير رمضان طبعا] والصلاة والنوم أما الرهبانية فهى مرفوضة من أساسها ولا يقبل من المسلم إلا

---

(١) حديث ٧ فى رياض الصالحين للنووى.

الزواج مادام قادرا على تكاليفه وأعبائه من جهة الصحة والقوة والنفقه ففيه عمار الدنيا وفى الرهبانية خرابها.

«إنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى»[1].

فالإسلام وسط بين الصراع على الحطام الفانى وبين الزهد والرهبانية.

«إن لربك عليك حقا وإن لبدنك عليك حقا وإن لأهلك عليك حقا فأعط كل ذى حق حقه»[2].

ولا يطغى حق الزوجة والأولاد على حق الله فتتحول الحياة إلى مادة صرفة وصراع على المتاع: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾**[3].

ولا يطغى حق الفرد على الجماعة كما فعلت الرأسمالية ولايطغى حق الجماعة على الفرد وتتمثل فى رأس الهرم الزعيم وركيزته التى يستند إليها الحزب فتمحو تماما حرية الفرد فى أبسط الأشياء وألزم الحقوق حتى فى تكوين الأسرة والاختصاص بالزوجة وملكية العش السعيد والمزرعة البسيطة.

٥ ـ سلامة القرآن من التحريف:

تعرضت كتب الأديان السابقة كالتوراة والأناجيل ـ الكتاب المقدسى بعهديه القديم والجديد ـ للتغيير والتبديل فدخل فيها كلام الناس مع كلام الله فهى خليط بين كلام الله وكلام أنبياء بنى إسرائيل وكبيرهم موسى ومنهم داود وسليمان..

وكلام الشراح والمفسرين والرهبان والحاخامات وأهم واحد فى هؤلاء عذرا...

وفيه أسفار لا تعترف بها بعض الطوائف كالبروتستانت الكتاب المقدس عندهم ٦٦ سفرا وعند الكاثوليك ٧٣ سفر لأنها متحولة ويسمونها الأبوكريف وهذا بيانها

---

(١) حديث ١٤٣ فى رياض الصالحين للنووى.
(٢) حديث ١٤٩ فى رياض الصالحين للنووى.
(٣) سورة المنافقون آية: ٩.

سفر الحكمة، سفر المكابينيان سفر يهوديت، سفر الجامعة، سفر سوزان، سفر يعل و سفر التثنية، سفر نشيد الأنشاد، سفر طوبيا، سفر ياروخ.

وفى أناجيل النصارى كثير من وجوه التعارض، والتناقض مذكورة فى كتاب إظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندى ويتبعه فى منجاة الشيخ أحمد ديدات..

ويكفى القسمية بالأناجيل مع أن الأصل إنجيل واحد.

٥ ـ رفع ينير الكهنوت عن رقاب الناس:

فلا واسطة بين العبد وربه فى الدعاء والاستغفار والتوبة ولا حاجة به إلى صكوك غفران وكشف أسرار فى كرسى الاعتراف والبابا معصوم عندهم من الأخطاء وفى هذا الموضوع كتبت فصل المستور والمفضوح فى كتابى النعم[١].

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِداً لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٢].

ولا يشترط الصلاة فى المسجد والمعبد كما يفعل النصارى وللمسلم أن يصلى فى أى بقعة شاء إلا المجزرة والمزبلة وقارعة الطريق ومعاطن الإبل والحمام. هذه بساطة ومرونة فللفلاح أن يصلى فى حقله وللكاتب فى مكتبه وللتاجر فى متجره وللجندى فى معسكره أو دركه وللصانع فى مصنعه وللملاح فى سفينته وللمرأة فى بيتها ويمكنهم صلاة الجماعة فى هذه الأماكن إذا زاد العدد عن واحد إلا أن فضل صلاة الجماعة فى المساجد عظيم وردت فيه أحاديث كثيرة وتوفيقًا بينها وبين جواز الصلاة فى الأماكن الأخرى ورد الحديث.

«أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وأعطيت الشفاعة وكان النبى يبعث فى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[٣].

قال الفقهاء: إن صلاة الجماعة فى المساجد سنة مؤكدة وليست فرضا بحيث

(١) النعم فى القرآن والسنة ص٦٨. نشر مكتبة الإيمان بالمنصورة (٢) سورة التوبة آية: ٣١.
(٣) فقه السنة ١/٦٦ ـ التيمم وقدروا. الشيخان.

ترفض الصلاة إذا كانت فى غير المسجد. . .

٦ـ سماحة الاسلام مع الأديان السابقة:

فهو يعترف بها ويحترم رسلها مثل إبراهيم وولديه اسماعيل وإسحاق وحفيدة يعقوب ومن سلالته موسى وداود وسليمان وعيسى ولكن لا يتجاوز بهم نطاق البشرية كما فعل النصارى مع المسيح واليهود مع العزير، وأصحاب الديانتين لا يعاملون المسلمين بالمثل فيحترمون محمدا فهم لا يعترفون برسالته ولا يكفون عن الطعن فى ذاته فيتهم مثلا بالشهوانية لأنه عدد الزوجات فى آخر عمره. . . وقد اكتفى بزوجة واحدة ربع قرن من الزمان ولم تكن بكرا وإنما كانت ثيبًا سبق لها الزواج. مرتين وظل يثنى عليها بعد موتها حتى غارت منها زوجته عائشة.

٧ـ البساطة والبعد عن الأساطير وترك التماثيل والنقوش والزخارف:

٨ ـ المحافظة على سلامة الفرد والمجتمع:

أوجب الله الطهارة المادية. وطهارة الجسد والثوب والمكان وجعلها شرطا فى صحة الصلاة. . إزالة النجاسة وغسل مخارجها والوضوء والغسل إن حدث ما يوجبه وما ينقضه وإلا كان مستحبا ومندوبا ليتم اتصال المسلم بالله خمس مرات فى اليوم والليلة فرضا لازما وأكثر فى النوافل والسنن والطهارة المعنوية مطلوبة أيضا: **﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾**[1]. طهارة القلوب تسبقها طهارة الجوارح أما الزكاة فهى صمام أمن للمجتمع ونزع فتيل الحقد بين الطبقات [الفقراء والأغنياء] وتدعيم للأخوة الحقيقية. . قلبا وقالبا وقولا وعملا بين المسلمين.

والصيام تربية للإرادة وتقوية للعزيمة، والحج تحقيق نوع من الأخوة للقادرين على السفر إلى بيت الله الحرام وشهود المناسك وحرم الخبائث ومنها الخمر والمخدرات الطبيعية والمصنعة والدخان وهو يتسبب فى مرض السرطان كما أثبت العلم الحديث. . . وهو عادة سيئة انتشرت بين الناس فى العصر الحديث ولم يكن معروفا فى العصور القديمة وأصبحت له مصانع وشركات ويستخدم فى صناعته وتجارته وتوزيعه رؤوس أموال ضخمه. .

---

(١) سورة العنكبوت آية: ٤٥.

وحرم الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به وما ذبح على النصب. وحرم القتل للنفس والغير الصغار والكبار إلا أن يكون هناك قصاص والسرقة والغش والرشوة واستغلال النفوذ والربا والنجش والتطفيف فى الكيل والميزان والمقياس والبيع بذمتين..

والزنا فتعدد صلات الرجال بإمرأة واحدة يتسبب فى سرطان الرحم كما أثبت العلم الحديث والشذوذ الجنسى بتسبب فى مرض فقد المناعة ويقطع النسل فيؤدى إلى خراب الدنيا.

٩ـ تقدير مبدأ المسؤولية الفردية:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾(١).

﴿لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾(٢).

﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾(٣).

فليس هناك شيال لذنوب الأجيال السابقة أوحمال لخطايا الأجيال المعاصرة أو اللاحقة كما هى عقيدة النصارى فى حكمة صلب المسيح وهو لم يصلب أصلا بل رفع إلى السماء وإنما وقع الصلب على الشبيه: **﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾**(٤).

وقد جاء فى المثل يخلق من الشبه أربعين... فهل كان الشبيه مؤمنا مثاليا افتدى المسيح بنفسه وقبل أن يتحمل الإهانة والقتل والصلب والتشويه أم كان خائنا باع صاحبه بثمن بخس دراهم معدودة عدتها ثلاثين كما ذكر فى التفسير.

١٠ ـ الإيمان بحياة ثانية يحاسب فيها الإنسان على ما فعله من خير أو شر فى حياته الأولى:

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾(٥).

وفيها تتم العدالة التى شوهتها أهواء البشر فى الدنيا أو حجبتها الجهلات

---

(١) سورة النجم آية: ٣٩. (٢) سورة البقرة آية: ٢٣٣. (٣) سورة هود آية: ٤٦.
(٤) سورة النساء آية: ١٥٧. (٥) سورة الأنبياء آية: ٤٧.

والأوهام والأعراف الضالة أو أبعدها التزوير والتضليل أو حالت دونها قلة الأدلة وعدم كفايتها وقد تزيف الحقائق بمقتضى البيان الساحر من المدعى أو وكيله المحامى الماهر فيقضى القاضى حسب علمه بحق أخيه فمتى أخذ شيئا بهذه الصورة فهو قطعة من النار فليأخذها أو ليدعها وهذا معنى حديث شريف.

والعدالة فى الدنيا والآخرة سبب يكف المجرمين عن الجرائم، ومعظم السفاحين والجبارين والطغاة يفعلون كل ما خطر على البال ووفد على الخيال مهما كانت بشاعته وقسوته..

ومن هؤلاء فرعون الذى كان يقتل مواليد بنى إسرائيل الذكور ويترك النساء أحياء خوفا على نفسه وملكه فقد يخرج واحد من هؤلاء يكون سببا فى قتله أو ضياع ملكه وقد تم القضاء ووقع المحذور الذى كان يخشاه ولم ينفعه الظلم وقتل الأبرياء ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[1].

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[2].

وقصة موسى مع فرعون مذكورة فى بعض سور القرآن مثل سورة البقرة والأعراف وطه والقصص.

وقد استبق قادة الأحزاب الشيوعية الحاكمة[قبل أن تسقط دولتهم فى العالم] فى هذه الحلبة مع فرعون ففعلوا بأنصارهم وأعدائهم ما تشيب لهوله الولدان وأعادوا عهد محاكم التفتيش التى انشئت فى أسبانيا لاستئصال شأفة المسلمين بعد الهزيمة وسقوط الأندلس.

١١ـ السلوك جزء من التعاليم أو التطبيق جزء من النظرية:

القدوة الحسنة شرط فى الداعية وفى الانفصال بينهما ورد كثير من الآيات والأحاديث مثل: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[3].

---

(١) سورة الأحزاب آية: ٣٨.
(٢) سورة الحديد آية: ٢٢، ٢٣.
(٣) سورة البقرة آية: ٤٤.

وهو باب فى كتب الحديث وراجع مقالى الدعوة بالقدوة الذى سبق فى هذا الكتاب[1].

فللدين أثر واضح فى حياة المتدين الصادق فهو مخلص محب للآخرين متسامح لا يحقد على أحد... كريم يبذل قصارى جهده فى تخفيف الآلام على الآخرين وتستغرق مشاريع خدمة الجماعة حياته وأوقاته وقد آمن أبو بكر الصديق وغيره إعجابا بصدق الرسول وكرم أخلاقه وحسن عشرته وكذلك فعلت السيدة خديجة بنت خويلد الأم الأولى للمؤمنين فى كل ناحية من نواحى الحياة ففى التجارة يبيع بذمة واحدة، واحدة فلا يغش ولا يحتكر ولا يكذب ولا يطفف الكيل والميزان ولا يبخس الناس أشياءهم ولا يتحايل رغبة فى الكسب بأى ثمن والزهد وخصوصا لمن كان فى موضع الرياسة والحكم والاختلاط بالناس فلا يتكبر على أحد مهما كانت منزلته فى عشيرته.

١٢ـ الإعجاز العلمى تظاهرت علية الأدلة وتواترت عليه البراهين:

وقد حدث خلاف خطير بين التوراة والأناجيل فى مسائل كشفها العلم الحديث وأثبت وجهة نظر القرآن وصدق بيانه وأنه من عند الله خصوصا لأن الرسول الذى جاء به لم يدخل مدرسة ولم يتلق عن أستاذ ولم يتخرج فى جامعة..

من أجل هذا قام العداء الساخر بين رجال الدين والأحبار والرهبان والكهان... وبين العلماء على مسائل منها...

الشمس سراج وهاج... هى مصدر للحراة والضياء والقمر نور يعكس سطحه ضوء الشمس فيمر به الوجه المقابل له من الأرض فى الليل فهو كالمرآة العاكسة.

الأرض كروية: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾[2].

فلو كانت مسطحة لطلعت الشمس عليها كلها فكان النهار أو غابت عنها فكان الليل مرة واحدة.

(١) ص: ٦٦ من هذا المكتوب.

(٢) سورة الزمر آية: ٥.

نقص التكوير.

الأرض مفلطحة عند القطبين تشبه البيضة كما ورد فى الآية: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها﴾[1].

دوران الأرض حول نفسها: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾[2].

فهى أوتاد خاضعة لجاذبية الأرض تدور بدورانها حول محورها كل يوم وحول الشمس مرة فى العام وبسبب هذا الدوران حول المحور يحدث الليل والنهار للتناوب بين العمل والراحة والحركة والسكون.

الجاذبية:

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[3]. قال بعض العلماء: إن العمد الخفية هى الجاذبية ولها فوائد فهى تمسك الغلاف الجوى حامى الأرض من الشهب وتمسك الماء فى المحيطات والبحار والبحيرات والأنهار.

وتمسك القمر فى مداره حول الأرض فلا يبتعد عنها ويفلت من الجاذبية ولا يقترب منها فيصطدم بها وفى الجغرافيا الفلكية يطالع القارئ كتابا شعبيا بسيطا كافيا فى هذه المعلومات مع الله فى السماء للدكتور أحمد زكى [رحمه الله].

تقطير الماء اللازم لحياة الإنسان والحيوان والنبات تحيط المحيطات والبحار والبحيرات بمساحة كبيرة من الأرض فيتبخر ماؤها بسبب حرارة الشمس وتحمل الرياح البخار إلى الطبقات العليا من الجو وتنمو السحب الممطرة على شكل رأسى كالجبال ثم يسقط الماء العذب ويسير مكونا أنهارا تروى الوديان.

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ. أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴾[4].

الرياح لواقح... تؤدى مهمة نقل حبوب اللقاح من الذكر إلى الأنثى فى النبات.

(١) سورة النازعات آية: ٣٠، ٣١

(٢) سورة النمل آية: ٨٨.

(٣) سورة الرعد آية: ٢.

(٤) سورة الواقعة آيات: ٦٨ ـ ٧٠.

أطوار خلق الإنسان.

الجلد مركز الإحساس تسوية النبان وليس هناك تعارض أو تناقض بين القرآن والعلم الحديث لأن الله الخالق للكون والإنسان هو الذى أنزل القرآن بعكس التوراة والأناجيل - الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد وفى هذا الموضوع صدر كتاب دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة تأليف موريس بوكاى . .

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1].

تأثير القرآن فى قلوب وعقول القراء والمستمعين ومن هذا إسلام عمر عندما سمع قراءة خباب بن الأرت لسورة طه فى منزل أخته فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد . .

وأثر القرآن فى سعد بن معاذ حين قرأ عليه مصعب بن عمير أوائل سورة الزخرف وكان أبو بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن لا يملك دمعه كما وصفته ابنته عائشة .

وكان سببا فى إسلام لبيد بن ربيعة العامرى حين قرأ آيات علقها بعض المسلمين ببناء الكعبة بجوار بعض أبياته فقال: والله ما هذا قول الشعر وأنا من المسلمين . وهذا وجه من الإعجاز اهتم به علماء البلاغة والبيان الذين كتبوا فى إعجاز القرآن مثل أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى .

ولذلك كان من الواجب ترجمة معانى القرآن إلى اللغات العالمية ويقوم بهذه الترجمة مسلمون لأن تراجم الكفار يظهر عليها قصور الفهم والجهل فتشوه الحقائق نتيجة لذلك أو يعميهم التعصب الأعمى فتشوه الحقائق عمدا وقصدا

اليسر ورفع الحرج.

فيه أحكام خاصة بأصحاب الأعذار، المريض له أن يتيمم بدل الوضوء والغسل إذا كان استعمال الماء يضر بصحته أو كان لا يجد الماء أصلا أو كان قليلا لا يكفى إلا لشرب الإنسان والحيوان وله أن يصلى قاعدا أو مضطجعًا أو نائما أو ايماء برأسه بحسب حالة المرض.

(١) سورة فصلت آية: ٥٣.

وله أن يفطر فى شهر الصيام رمضان فإذا كان المرض مؤقتا فعليه القضاء فى أيام أخرى بعد الشفاء وإذا كان من عضال الداء مستعصيا على الشفاء كالشيخوخة فعليه فدية طعام مسكين. كل يوم.

وللمسافر أن يجمع بين صلاتى الظهر والعصر أو المغرب والعشاء جمع تقديم فى وقت الأولى منهما أو تأخير فى وقت الثانية منهما.

وله القصر صلاة الرباعية ركعتين..

والفقير الذى لا يملك الحد الأدنى من المال ويسمى النصاب يأخذ من الزكاة وليس عليه شىء إلا أن يتطوع بجهد المقل أو شطر التمرة أما المعجزات الحسية فكانت سببا فى إيمان من رآها فى حياة الرسل ولم تتكرر فى العصور التالية وإنما صدق المسلمون بحدوثها تبعا لإيمانهم بالغيب الذى جاء به الخبر من عند الله وانتهى دورها كسبب فى اعتناق الإسلام ولها على أى حال كتب خاصة تتفنن فى سردها..

وقام القرآن بالنسبة للرسالة الخالدة مقام المعجزات الحسية الموقوتة فأثره دائم وعمله قائم.

المصالح لاتباع

المصلحة هى إدارة فرع من وزارة تتولى أداء خدمة عظيمة للجمهور وهى معنى محدث لم تذكره معاجم اللغة القديمة لكنه ذكر فى الوجيز والوسيط .

وكلاهما من عمل مجمع اللغة العربية بالقاهرة لتجديد شباب اللغة وهو أمر ضرورى فيما سمى بألفاظ الحضارة مثل القطار والقاطرة والجرار والسيارة والباخرة والطائرة النفاثة والحوامة والمقاتلة والقاذفة والرشاش والدبابة . .

ومثل مصلحة السكك الحديدية فهى تنقل الركاب المسافرين والبضائع فى طول البلاد وعرضها بواسطة شبكة من الخطوط الحديدية تسير عليها القطارات المعتادة والسريعة بدرجاتها الثلاث الأولى والثانية والثالثة لتشمل المستويات المختلفة فى الغنى والفقر وتقف فى المحطات الكبيرة والمدن العظيمة والأمصار الفخمة . . والبلاد الصغيرة لنزول الركاب وصعودهم وقد ظلت أهمية نقل المسافرين كما هى بل زاد الزحام يتكاثر السكان وأزمة المساكن ويحتاج الأمر لزيادة عدد القطارات فى الخطوط الهامة عند الذروة . .

ولم تتأثر بمنافسة السيارات إلا فى المسافات القصيرة التى تتساوى الأجرة عليها فى عدة محطات أما نقل البضائع فى القطارات فقد خف عن ذى قبل وغلبتها الشاحنات والمقطورات الكبيره والمتوسطة والصغيرة لأن عملها من الباب إلى الباب وهى ذات عجل من مطاط يجرى على طرق مرصوفة داخل المدن وبين الأقاليم والمحافظات أما فى القطارات فتنقل البضاعة من مخزن التاجر إلى الرصيف حيث تشحن فى محطة التصدير وتكرر العملية حيث تفرغ فى محطة الوصول ثم تنقل إلى المخازن ولا تحتاج لطرق حديدية ومحطات وأنفاق وكبارى ومواقف وأرصفة وإشارات وأعمدة وأسلاك . .

ولو كانت النية الصالحة هى خير البشر ومنفعة الناس ومصلحة الخلق وسعادة الجميع دون استغلال أو احتكار لكان فيها ثواب عظيم ورحمة كبيرة للأمة

خصوصا للطبقات الفقيرة الكادحة العاملة والمسلم الحق حريص على كل ذلك ولو بالنسبة للحيوان الاعجم كما جاء فى الحديث «فى كل ذى كبد رطبة أجر»[1].

ملايين تتحرك كل يوم والحركة بركة كما يقال لتقضى حاجاتها وتحقق مصالحها مابين مسافر يؤدى عملا فتنقل الأيدى العاملة الرخيصة إلى المصانع والمعامل والشركات والمحالج والمغازل والناسج والمصابغ والمتاجر وبذلك تساعد فى حل أزمة المساكن لمن لم يتيسر له السكن بجانب عمله . . .

أو يطلب علما أو يصل رحما أو يشارك فى مهمة وموظف فى المصلحة يأخذ أجرا وتاجر يبيع على الأرصفة والمداخل والمخارج وفى القطارات ينال مكسبا وشيال يلتقط رزقا . .

هذه الأغراض المحمودة هى الباعث الأول والأفضل للإمام العادل والحاكم الرشيد صاحب القرار والممول والمنشىء العامل والمهندس والمقاول والتاجر والمحافظ على أداء الخدمة وبقاء الفائدة وحسن سير العمل والمحارب لعوامل الفساد وأسباب الخراب . . لكان كل ذلك من العلم النافع والصدقة الجارية ذات الثواب المتصل بعد الموت كما جاء فى الحديث الشريف الصحيح «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»[2].

وزيد عليها فى حديث آخر بناء المسجد وبيت ابن السبيل أو دار الضيافة كما تسمى فى هذه الأيام وحفر النهر وهذه أمثلة يقاس عليها مابقيت فائدته على مر العصور كبناء السدود والقناطر والجسور والمدارس والمعاهد والجامعات والمستشفيات ومعامل البحوث وقوانين المعاشات وجميع المصالح التى تقى الناس شر طغيان رأس المال: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ. أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾[3]. واحتكار الضروريات وهنا تأتى أحاديث ذم الاحتكار وعقاب المحتكر واستغلال حاجة المضطر مثل .

«من دخل فى شيء من المسلمين ليغليه عليهم كان حقا على الله تبارك وتعالى أن يعقده بعظم من النار يوم القيامة»[4].

---

(١) حديث ١٢٦ فى رياض الصالحين للنووى سقى الكلب العطشان.

(٢) حديث ٩٤٩، ١٣١٣ فى رياض الصالحين للنووى.

(٣) سورة العلق آية ٦، ٧.

(٤) حديث فى فقه السنة ٣/ ١٦٢.

فرفع الأسعار على المسافر بالليل وتطويق الناس فى الأعياد والمواسم والحج والهجرة والحرب.. ومن كانت معه حقائب ثقيلة وأمامه رحلة طويلة يعانى الأمرين.. كل هذا من استغلال حاجة المضطر وفى المصلحة شىء لله [والمركب التى فيها شىء لله لاتغرق] اشتراكات مخفضة لطلاب العلم والعمال والموظفين الذين يسافرون يوميا وتذاكر نصف أجرة لعساكر الجيش وكذلك الحال مع الكفيف ورفيقه فى السفر يدفعان تذكرة واحدة مساعدة فى عون الأعمى والأخذ بيده «**والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه**»[1] وتخفيف العبء عنه وعن صاحبه فيكفيه أنه جاد على أخيه بوقته وعطل نفسه من أجله: «**وبصرك للرجل الردىء البصر صدقة**»[2].

وتذاكر مجانية لعمالها وموظفيها وأسرهم فى الخدمة وبعد الخروج إلى العاش..

فكيف تباع هذه المصالح وهى رحمة بالأمة وملجأ لعامة الشعب فى المواصلات.

وقد بقيت أثمان التذاكر ثابتة لا تتحرك مدة طويلة من الزمن مع أن كل شىء قد تحرك وارتفع حتى أصبحت مظلومة تتعرض للخسارة وانعكس عليها ذلك فى مظاهر الإهمال وعدم التجديد وقلة الصيانة مع أن التعبير وارد فى القرآن الكريم: ﴿**لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ**﴾[3].

وفى الحديث «**بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله اللهم إنى أعوذ بك أن أضل أو أُضل أو أزل أو أُزل أو أظلم أو أُظلم أو أبغى أو يبغى على**»[4].

فلا تباع المصالح التى تؤدى الضروريات للجمهور بحجة الخسارة وإنما يعالج الأمر على فقتضى أصول التجارة الناجحة الرابحة ربحا معقولا لاوكس فيه ولا شطط.

هناك طريق وسط بين ظلم المصلحة للجمهور وظلم الجمهور للمصلحة يسير على خط الرحمة الوارد فى الحديث الشريف الصحيح «**رحم الله امرءا سمحا إذا**

---

(١) حديث ٢٤٥ فى رياض الصالحين للنووى.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٧٩.

(٣) فقرة من حديث مشهور.

(٤) فقه السنة ١/٥٨.

باع وإذا اشترى وإذا قضى وإذا اقتضى»[1] ليت هذا الحديث يتخذ دستورا في التعامل بين الناس وهنا أيضا آيات التيسير وأحاديث الحب والإخاء والإيثار وكلها قيود على حرية المكسب المطلقة كما يزعم رأس المال وينبغى الضرب بيد من حديد ويكفى تنفيذ العقوبات الشرعية ومنها قطع أيدى اللصوص وزجر. المرتشين والخونة.. سوس ينخر فى كيان البتيان حتى ينهار وهو يصيب الملكية الخاصة والعامة على السواء ولا يختص بواحدة منهما فقد يسرق الابن أباه مع علمه أنه سيرث بعض المال أو كله إذا انفرد.

وقد يخون الشريك شريكه وقد يستغفل العامل أو الموظف القوانين فى الدولة والأمانة متوقفة على الضمير والأخلاق النابعة من الإيمان والقدوة الحسنة ماء وغذاء لنمو النبات وينبغى الابتعاد عن مظاهر الترف فى المبانى والأثاث والفراش والرياش والمظاهر الفارغة الجوفاء التى تعطى صورة كاذبة من الغنى لشعب فقير ودولة نامية.

ولايصح أن تكون مصالح القطاع العام فى هذا الرواج لأنها ضروريات لا يستغنى الناس عنها كالطعام والشراب ثم لا تعول نفسها بل تأخذ دعما من الدولة فهذا وضع من المضحكات المبكيات كأن الشاعر عناها بقوله:

كالعيس[2] فى البيداء يقتلها الظمى والماء فوق ظهورها محمول

والمصلحة منذ إنشائها فى عهد الملكية تابعة لوزارة المواصلات وكثيرا ما أشيع أن الشرقيين أو المسلمين أو المصريين لا يفلحون فى إدارة مصالحهم ولا يحلون محل الأجانب وكذب بقاء هذه المصالح تحت إدارة أهلها ومنها قناة السويس الإشاعات التى تعبر عن مركب النقص وفقد الثقة وعقدة الخواجا.. كل هذا كان قبل ظهور الشيوعية فى عقر دارها قفص الدب روسيا وماتلاها من دول الستار الحديدى والكتله الشرقية وبعيدا عن القفص والستار فى بلاد التقليد الأعمى وهى للأسف بلاد الشرق العربى المسلم وظهر بعد مولد الثورة وظهور الاشتراكية والقطاع العام وسائر المسميات إياها فى الساحة.

وظل حالها على ماهو عليه ثم تغير الناس من النقيض إلى النقيض فتصايح بعض الصحفيين والكتاب ببيع المصالح وتحويل القطاع العام إلى خاص وتحويل

(١) حديث ١٣٦٨ فى رياض الصالحين للنووى.

(٢) الجمال التى تحمل الماء.

النشاط الصناعى والزراعى والتجارى كله إلى القطاع الخاص ونسى أن هذه ثغرة يدخل منها النفوذ الأجنبى ويبدو منها تحكم الغنى فى رقبة الفقير وتعود بسببها الأحقاد من جديد وتنتفى الرحمة وما أثر هذا البيع على النظام العام لأن الأجور ضعيفة يبتلعها غول رأس المال فلا يبقى ولايذر.

وكلمة المصلحة أدل على المقصود وأوقع فى الاسماع وهى لاتنفى استقلال الإدارة عن الوزارة وكذلك الحال فى مصلحة البريد التى تقوم بنقل الرسائل المعتادة والمسجلة والسريعة والبطيئة والأموال فى الحوالات [وتحفظها فى صندوق التوفير لمن أراد].

والأصوات المسجلة على الشرائط من فرد أو جماعة فى بلد إلى مثيله فى البلد الأخرى. . والطرود أيضا.

وهناك مصلحة الطرق والمعابر تنشىء الشوارع بين الأقاليم والمحافظات والمراكز وتبنى القناطر والجسور والمعابر التى تعترض الناس فى نهر أو ترعة أو مصرف.

ومصلحة النقل العام تسير الحوافل داخل العاصمة وحواضر المحافظات وبين الأقاليم وتغنى الناس عن شر الاستغلال . . . الغنى يستعمل سيارة مملوكة وتاليه فى الغنى يستعمل سيارة مخصوصة وتاليه يستعمل سيارة أجرة والمسكين يركب حافلة صغيرة أو متوسطة.

أما البائس الفقير فملاذه الأول والأخير حافلة كبيرة، ومن المرافق والمصالح مصلحة الرى ومياه الشرب والصرف الصحى والكهرباء.

كيف يتصور أحد بيع هذه المصالح والمرافق فيضيق الخناق على عباد الله وعامة الشعب «الناس شركاء فى ثلاثة الماء والنار والكلأ إنها صمام أمن وحمامة سلام بين الطبقات ووجودها يحقق الأصالة والمعاصرة.

أفهم أن تباع الشركات التى لا تقدم الضروريات مثل شركات الدخان والمياه الغازية واللبان والشطائر والفطائر والرقائق والعصائر إلخ

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(1).

---

(1) سورة هود آية ٨٨.

العاقل والمجانين

اشتهر قيس فى الأدب العربى بقيس بن الملوح مجنون ليلى العامرية وهى ابنة عمه وكلاهما من بنى عامر عاشا فى بادية نجد على عهد معاوية بن أبى سفيان الخليفة الأموى فى دمشق وواليه على الحجاز مروان بن الحكم ونجد تتبعه بطبيعة الحال وبعد زمن طويل زاد عن ألف عام ألف أمير الشعراء فى العصر الحديث أحمد شوقى مسرحية مجنون ليلى شعرا..

ومثله فى الشهرة سميه قيس بن ذريح مجنون ليلى بنت الحباب الكعبية استسقاهم ماء فى الحر فكانت ليلى هى الساقية وطلبت منه أن يقضى وقت الراحة وفترة القيولة فأجاب الرجاء وكان ذلك غايه مناه ولما جاء أبوها أكرم مثواه فنحر له جزورا وقضى يومه فى الضيافة فعشقها وعشقته من ذلك الحين وأراد أن يتزوج بها فرفض أبواه ولم يعدم الحيلة فتشفع بالحسين حفيد الرسول ﷺ فقبل أبوها شفاعته وكان المهر من عنده وزوجها وبعد مدة لم تلد فألح أهله فى طلاقها ليتزوج الولود وألح أبوه فى ذلك حتى تم الفراق ووقع الطلاق ورحلت وتزوج غيرها ولم تتزوج هى إلا بعد زواجه وفاء لذكرى الحب وتشفع الحسين مرة ثانية عند زوجها فطلقها وعوضه مالا كثيرا ولكن فرحتهما قيس وليلى لم تتم فماتت فى العدة ومات على أثرها بحسرتها.

وبعد ألف عام وزيادة ألف الأستاذ عبد المجيد الدسوقى قصة نثرية عنهما وتلاه الشاعر عزيز أباظة فألف عنهما مسرحية شعرية ولعله كان مقلدا لشوقى فى الموضوع وإن اختلفت الأسماء والأشخاص أشاد الشعراء والكتاب بمجانين الحب ولكنى أحببت أن أشيد بسميهما العاقل قفيس بن سعد بن عبادة..

كان أبوه زعيم الأنصار فى المدينة قبل الإسلام وبعده وقبل الهجرة وبعدها وأول ما دفعنى لتتبع أخبار الابن قيس وذكر مآثره أنه كان جواداً كريما رحيما ورث هذه الصفات عن أبيه وتصرف فى ماله عندما وجد أن الظروف تحتم ذلك وليس له مال يفدى به مال أبيه.

بأبيه اقتدى عدى فى الكرم   ومن يشابه أباه فما ظلم

والبيت من شواهد النحو على القاعدة أن أب وأخ وبقية الأسماء الخمسه ترفع بالواو وتنصب بالألف وتجر بالياء وهناك لغة نادرة هى النقص حذف حرف العلة والإعراب بالحركات الظاهرة على الباء والخاء، وبهذه اللغة النادرة جاء قول الشاعر المتقدم.

كانت لأبيه جفنة تدور مع النبى ﷺ حيث دار من بيوت نسائه بلحم وثريد أو لبن وخبز أو خبز بسمن أو بخل وزيت وكان ينادى عند كل أطمة كل ليلة على من أراد القرى وقدر له أن يموت فى إحدى مدن الشام جوران أو بصرى أو فى قرية من غوطة دمشق بعد فتحها فى خلافة أبى بكر الصديق سنة ١٣ هـ [(١)] والجود والكرم والإيثار صفة ممدوحة عند العرب فى الجاهلية لم ينقص قدرها ولم يغفل شأنها الإسلام وقد مدح إطعام الطعام فى كثير من سور القرآن الكريم الحج ٢٢ ، الحشر ٩، الحاقة ٣٤، البلد ١٤ الفجر ١٨، الماعون ٣ . . وهو باب فى كتب الأحاديث نيه عدة أحاديث ويبدأ بما فعله إبراهيم الكريم مع ضيوفه وكان جوده على قدر غناه. . والجود من الموجود كما يقال. . .

وسارت بذكر مآثر الكرماء فى الجاهلية والإسلام الركبان وسطرتها الأقلام ودونتها الكتب والصحف لتقرأ وتروى ومجدها الشعراء فى الدواوين والمعلقات والحماسات والمختارات واستخرجوا بالمدائح الأموال والمنح والهبات القليلة والكثيرة من كرام ولئام الناس لتكون ميراثا محمودا وأسوة صالحة وقدوة حسنة للأجيال الحالية والتاليه.

وكان المديح أحد الأغراض الهامة فى الشعر العربى ومن هذه الكتب الكرماء لأبى هلال العسكرى، المستجاد من فعلات الأجواد للتنوخى ونوادر الكرام فى الجاهلية والإسلام تأليف إبراهيم زيدان وبعض الكرماء [والحق يقال] كان لهم ولع عجيب بالكرم والشهرة وحسن الأحدوثة لدرجة أنهم خربوا بيوتهم وباعوا التليد والطريف والموروث والمدخر وهنا تدخل الورثة فوصفوا الآباء بالسفاهة وحاولوا إثباتها بجميع الأدلة وإقناع القضاة فى المحاكم حتى يتمكنوا من الحجر على الأب

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٧/ ٤٦.

الناس بعد أن كانوا من الأغنياء..

والإسراف فى الكرم إلى هذه الدرجة مذموم فى الإسلام كما جاء فى الحديث «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفنون الناس»[1].

ومن الكرماء من كان يستدين إذا لم يكن بين يديه أو حافظته أو بيته أو رصيده ما يكرم به الضيف فتأتى الديون غرما ثقيلا على الورثة يجب أن يقضوا الدين قبل قسمة الميراث.

وبعد أن كانت أيدى الكرماء فى الدنيا هى العليا تقلب الدنيا لهم ظهر المجن فتصبح أيديهم هى السفلى ولا يعرفهم الكثير ممن كان لحم أكتافهم من خيرهم ويتنكرون لهم ويبخلون عليهم بثمن الدواء عند المرض والكفن بعد الموت وإطعام اليتيم أو كفايته [عزيز قوم قد ذل] بعد موت أبيه.

ومن الكتب التى أولع أصحابها بالأضداد بخلاء الجاحظ الذى يحكى نوادر البخلاء ويذم أفعالهم ويقص سيرهم ويذكر حججهم فى تسويغ البخل ومدح الشح ولما جاءت الحضارة الحديثة [وهى مادية فى جوهرها] حاولت زعزعة قيمة الكرم وطمس معالمها فقالوا لا محل للكرم بين الناس لأن المطاعم والفنادق تنتشر فى المدن وهى درجات حسب الغنى والفقر وتتكفل بإطعام الضيف الغريب ومبيته ليلا وإيناسه فى السهرة ففيها المباهج والمسرات والحفلات وكل شىء بالثمن وهذا تفضيل للأثرة على الإيثار وللشح على الكرم وهى تسير فى خط الهبوط وتنحدر على سلم السقوط..

وقد تأثر كثير من الناس المقلدين للأجانب.. المستغربين الذين يشعرون بمركب النقص أمامهم فى حياتهم فلو دخلوا جحر ضب لدخلوه وراءهم ويأتى القريب صاحب الحقوق الجمة كالأبوين والأخوة فإن لم يكن التنكر تماما انزله فى الفندق ودفع له حساب النوم والطعام.

بخلوا وأمروا بالبخل ولم يحضوا على طعام المسكين وصادف تهافت الفلاسفة الغربيين هوى كان دفينا فى نفوسهم فظهر وخلعوا برقع الحياء وكان

(١) فقرة من حديث ٦ فى رياض الصالحين للنووى.

الفلاسفة الغربيين هوى كان دفينا فى نفوسهم فظهر وخلعوا برقع الحياء وكان البخل زبدة على الفطيرة وجعلوا هذا التهافت على أعينهم ورؤوسهم واتخذوه دستورا لحياتهم ولم يبالوا بأنهم اتخذوا كلام الله وراءهم ظهريا والكرم من أحجار الأساس التى بنى عليها الإسلام فقد قام الأغنياء بحق الفقراء الذين اعتنقوا الدعوة وفقدوا الثروة نتيجة لذلك وحرموا من الميراث.

وكذلك كان حال الأنصار مع المهاجرين بعد الهجرة.. ورضا الله نتيجة الكرم.. والبخل من صفات الإنسان المذمومة فى القرآن وفى الأحاديث الشريفة الصحيحة خصوصا إذا وصل الأمر إلى حد منع الحق المعلوم للسائل والمحروم وعقوق الوالدين وقطع الرحم ونكران الجميل: ﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾[1].

وقد حارب أبو بكر المرتدين حين جحدوا الزكاة واستخرجها منهم بقوة السيف كرها بعد أن منعوها طوعا.

السيف أصدق أنباء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

ويزع الله بالسلطان مالا يزع بالقرآن.

ولما ظهرت الصحوة الإسلامية المباركة وعم نورها الآفاق فى المشارق والمغارب عاد المسلمون إلى سابق عهدهم فى الكرم فانتشر إطعام الطعام وانتصبت موائد الإفطار العامة كل يوم فى شهر رمضان.. وللمعتكفين فى العشر الأواخر من الشهر وانتشرت هذه السنة الحسنة والعادة الصالحة فى طول البلاد وعرضها فى الريف والبنادر والوبر والمدر والحضر.

وهذا ايذان بالتغيير والانتقال إلى الأصلح والأحسن: ﴿**إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾[2].

وأنا أحب أن يعيش المسلمون الحاضرون المعاصرون فى خط الأصالة

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨٠.

(٢) سورة الرعد آية ١٨.

المضارع مثل الماضى وقد كتبت مقالين فى هذا الموضوع السابق أحدهما الماضى والمضارع[1].

والثانى الأصاله والمعاصرة [2] ونشر كلاهما وآن الأوان بعد هذا الاستطراد المفيد لنقل أخبار قيس بن سعد بن عبادة. العاقل بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة عامر بن الجراح قائدا لسرية عددها ثلاثمائة رجل أو جندى فى رجب من السنة الثامنة للهجرة لغزو قبيلة جهينة التى تسكن على شاطىء البحر وكان زادهم جرابا من الثمر فلما وصلوا إلى الساحل أقاموا نصف شهر ينتظرون العدو حتى فنى زادهم وأكلوا ورق الشجر يبلونه بالماء فتقرحت أشداقهم وكان قيس بن مسعد بن عبادة [الكريم بن الكريم] فى البعث فنحر لهم ثلاث جزر (جمال) فى كل يوم جزورا وفى اليوم الرابع نهاه قائدة أبو عبيدة لأن قيسا أخذ تلك الجزر دينا فى مال أبيه فخاف الايفى له أبوه بما استدان فقال قيس أثرى سعدا يقضى ديون الناس ويطعم فى المجاعة ولا يقضى دينا استدنته لقوم مجاهدين فى سبيل الله ورزقهم الله بعد ذلك حوتا ضخما جنحت به العواصف نحو الشاطئ فكان نعم الزاد حتى سمنوا ولما يئسوا من لقاء عدوهم رجعوا إلى المدينة فقال قيس لأبيه: كنت فى الجيش فجاعوا قال انحر قال نحرت قال ثم جاعوا قال انحر قال نحرت قال ثم جاعوا قال انحر قال نحرت قال ثم جاعوا قال انحر قال نهيت[3].

حياك الله ياقيس لم يكن كرمك إسرافا فى مالك ولا مال أبيك فأحسست بالألم لرفاق السلاح المجاهدين فى سبيل الله حين تعرضوا للجوع فدفعك الألم إلى الكرم فلم تجد إلا الدين وسيلة إلى تنفيس الكرب والتيسير على المعسر وإطعام الجائع وإدخال السرور على المسلم والعون على نوائب الدهر.

وكان قيس يتناوب الغزو مع أبيه عاما وعاما وفى إحدى النوبات كان فى المدينة وأبوه غائب فى الغزو فأتى رسول الله أضياف مسلمون.

فعرف الوالد وهو غائب فى الغزو تصرف الابن وماذا سيفعل أن سيقول

(١) مجلة الهدى النبوى رمضان وشوال ١٤١٣ هـ.

(٢) مجلة الهدى النبوى جمدى الثانى ١٤١٤ هـ.

(٣) نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين حـ ٢٢٤ للشيخ محمد الخضرى وحديث ٥١٨ فى رياض الصالحين للنووى.

فعرف الوالد وهو غائب فى الغزو تصرف الابن وماذا سيفعل أن سيقول يانسطاس هات المفاتيح فيرد نسطاس هات من أبيك كتابا فيدق أنفه ويأخذ المفاتيح ويقضى لرسول الله حاجته ويكرم أضيافه. . فكان الأمر كذلك صح التوقع وتحقق الظن .

وهذه بعض أخبار عقلك ليكون الأمر من تقابل الأضداد بينك وبين مجانين الحب.

كنت لرسول الله بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير وحملت راية الأنصار فى بعض الغزوات وأحد دهاة العرب من ذوى الرأى الصائب والمكيدة فى الحرب ولاك على بن أبى طالب إمارة مصر فى خلافته القصيرة التى لم يهنأ بها ولم تتم فرحته فيها وحاصرته الفتن من كل جانب حتى فقد حياته فى إحداها على يد أحد الخوارج سنة ٤٠ هـ.

كنت ياقيس كفئا فى الدهاء لمعاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص واستقام لك الأمر فى الولاية مصر بسبب السيرة الحسنة والسياسة والكياسة والحركة والعزم والضبط والربط حتى يئسوا منك فكاديوا لك عند الخليفة حتى عزلك وولى محمد ابن أبى بكر بدلك فكان ذلك سببا فى خروج مصر من يد على ودخولها فى خلافة معاوية ونائبه عليها عمرو بن العاص وأصبحت طعمة له فى حياته.

ولم يدخل الغل عَلَى على قلبك لأنه عزلك عن الولاية وأصبحت مأموراً بعد أن كنت أميرا فظللت معه فى حروبه حتى قتل ومع ابنه الحسن حتى تنازل عن الخلافة ثم أراد الله أن يسدل الستار وتنطوى الصفحة وتنتهى الحياة سنة تسع وخمسين من الهجرة [1] ظهر فى هذه المواقف كرمك وعقلك وعفوك وسلامة صدرك من الأحقاد وخلوه من الضغائن فأنت أولى بعلو القدر ونباهة الذكر وجزيل الأجر من مجانين الحب.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٨/ ١٠١ .

سلام على إبراهيم

تعيش الأمة الإسلامية فى ذى الحجة كل عام مع الحجاج ما بين ذاهب لأداء فريضة الحج ومودع له عند الذهاب ومستقبل له عند الإياب بسلامة الله ومكبر فى أدبار الصلوات يوم وقفة عرفات والعيد وأيام التشريق ومعيد ومضح بعد صلاة العيد والحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام الواردة فى الحديث «**بنى الإسلام علي خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا**»[1].

فمن استطاع أداء هذه الرحلة الميمونة بالسيارة أو الباخرة أو الطائرة فى القرعة أو السياحة فليتعجل قبل أن يأتى مايشغله أو يصرفه وهذه وسائل النقل المعروفة فى زمننا ولم تكن معروفة من قبل وهى داخلة فى قوله تعالى: ﴿**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُون**﴾[2].

كان الحجاج يؤدون الرحلة على الجمل عادة وهو سفينة الصحراء أقوى الدواب وأصبرها على الجوع والعطش فى الصحراء والمسافات الطويلة.

وقد أدى رسول الله ﷺ حجه وعمرته راكبا على الجمل ولذلك كان الركوب أفضل وأيسر فمن الذى يستطيع المشى فى هذا السفر الطويل..

ومع فريضة الحج سنة العمرة ويسمى من يؤديهما معا قارنا من يؤدى العمرة أولا ويتحلل ثم يحرم فى الموعد المقرر للحج متمتعًا وكلاهما عليه هدى «**فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة﴾**[3].

وهذا تيسير أمام الفقير وما أكثر مواضع التيسير من الله على عباده المؤمنين من أصحاب الأعذار فى الوضوء والصلاة والصيام والحج ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**»[3].

---

(١) حديث ١٠٧٥ فى رياض الصالحين للنووى.

(٢) سورة النحل آية : ٨. (٣)سورة البقرة آية ١٨٥.

هؤلاء الحجاج والعمار والزوار وفد الله إن دعوه أجابهم وإن استغفروه غفر لهم لا يكفون عن التلبية عند تغير الأحوال «لبيك للهم لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك» إجابة لدعوة أبينا الخليل إبرهيم حين أمره الله: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾[1].

فكيف وصل صوت أبينا الخليل إبراهيم إلى أرجاء الأرض كان عليه الأذان وعلى الله البلاغ وما ذلك عليه بعزيز ولا غريب فقد وصل الإنسان بعلمه القليل الحديث الذى وفقه الله إليه أن أصبح المتكلم مذيعا كان أوخطيبا فى ناحية قاصية من الأرض فيبلغ صوته جميع أرجائها ونواحيها فى وقت واحد تلتقطه الأبواق فى أجهزة الإرسال الدقيقه الحساسة فتذيعه فى التو واللحظة وينتقل إلى أجهزة الاستقبال الدقيق الحساسة ولا يكتفى بذلك بل يرى الناس فى ملايين شاشات التليفريونات شخص المذيع أو الخطيب أو الهاتف أو المؤذن فإذا كان الإنسان بعلمه القليل وذكائه المحدود وقدرته المقيدة قد وصل إلى هذه الدرجة، فكيف يكون الحال مع قدرة الله المطلقة التى لا يعجزها شىء فى الأرض ولافى السماء فى الأولى والآخرة وغناه الفياض الذى لا يحد ولا يحصر؟.

جعلت هذه القدرة صوت أبينا الخليل إبراهيم يتردد صداه فى أرجاء العالم الفسيح ونواحى الأرض الواسعة.

وقد أثبتت الأيام أن المؤمنين بالغيب كانوا على حق فى أيمانهم وإسلامهم مادام الحق هو الذى أوحى والصادق الأمين هو الذى أخبر.

والحافظ هو الذى سلم الكتاب من التحريف والتغيير والتبديل وتسجيل أذان إبراهيم للناس بالحج فى القرآن نوع من البلاغ الذى تكفل الله به فى عمر الرسالة المحمدية. الأبدية

وهؤلاء الذين يذهبون إلى الحج والعمرة بأجسامهم وأشخاصهم قد لبث

(١) سورة الحج آية ٢٧، ٢٨.

أرواحهم النداء وهم فى عالم الغيب قبل أن يحلقوا بقرون وأعوام على مر الزمان إلى أن تقوم الساعة فهذا داخل فى علم الله وهو عالم بالمخلوقات قبل أن توجد وما يحدث منها بعد وجودها [والعلم ليس من صفات التأثير] فى الفعل والترك فهى مخيرة وليست مجبرة وعلى هذا التخيير يكون الثواب للطائع والعقاب للعاصى الفاسق عن أمر ربه.

﴿إن الله لا يَخْفَىٰ عَلَيه شَيْءٌ فِي الأَرْضِ ولا في السَّماء﴾[1].

﴿ وكَانَ أَمْرُ اللَّه قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[2].

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[3].

وسلام على إبراهيم فى ذكراه كل عام ومن مسك الختام فى الكتاب أن تذكر دعوات الرحمة ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ⑦ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑧ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[4].

وأنا فى هذا الكتاب وغيره ناشد حكمة وطالب علم وهاوى أدب..

وأسأله أن يجعل الكتاب من الصدقة الجارية والعلم النافع والعمل الصالح ومن دعاء القراء فهم بمثابة الأبناء إنه سميع قريب مجيب الدعاء.... آمين

---

(١) سورة آل عمران آية ٥.

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٨.

(٣) سورة فصلت آية ٥٣

(٤) سورة غافر آيات ٧، ٨، ٩

الفهرس